

مسائل الجاهلية

التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية

ألف أصله الإمام

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله تعالى

حرص الشيطان قديماً وحديثاً على إضلال بني آدم ووقوعهم في أمور الجاهلية من الشرك والمعاصي
ولذلك يحرص المسلم على تعلم هذه المسائل، ليكون على حذر دائم من الوقوع في شيء منها

الشرح للعلامة

محمود شكري الألوسي

قدم له وعلق عليه

علي بن مصطفى مخلوف

© دار المؤيد للنشر والتوزيع ، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

محمد بن عبدالوهاب بن سليمان ، ١١١٥هـ

مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية./١١١٥هـ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان؛ محمود شكري الألوسي .- الرياض، ١٤٢٣هـ

١٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٨ - ٠٧ - ٧٧٣ - ٩٩٦٠

١- العقيدة الإسلامية ٢- التوحيد أ- الألوسي ، محمود شكري (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٢٣/٥٥٨٣

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٥٥٨٣

ردمك: ٨ - ٠٧ - ٧٧٣ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة السادسة

شوال ١٤٢٣هـ

مؤسسة الجريسي للتوزيع

المملكة العربية السعودية: ص. ب ١٤٠٥ الرياض ١١٤٣١

هاتف ٤٠٢٢٥٦٤ – فاكس ٤٠٢٣٠٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السادسة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ) [آل عمران: ١٠٢].

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا) [النساء: ١].

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد أيضاً: فعن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبي ﷺ فخط خطّاً وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال: «هذا سبيل الله» ثم تلا هذه الآية: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ) [الأنعام: ١٥٣][1].

وكان من عهده ﷺ إلى أصحابه رضوان الله تعالى عليهم: «وستَرَوْنَ من بعدي اختلافاً شديداً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنواجِذِ، وإياكم والأمور المحدثات، فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضلالةٌ»[2]. والأمور

(١) صحيح: رواه ابن ماجه في (المقدمة/ اتباع سنة رسول الله ﷺ: ١١).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه في (المقدمة/ اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين: ٤٢).

المحدثات هي الأمور المخترعة في الدين التي يراد بها التقرب إلى الله سبحانه، وكل محدثة فهي بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فصاحبها في النار، ولو كان قد رآها حسنة.

وقال ﷺ: «قد تركتكُمْ على البيضاء لَيْلُها كنَهارِها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ»[1].

إن الاقتداء بالسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم في أمور الدين لهو أمر واجب جاء التصريح به في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فالله سبحانه وتعالى قد ذكر في هذه الآية الكريمة تحذيراً شديداً عن مخالفة رسول الله ﷺ، ومشاققته، ثم عطف على ذلك فقال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا شك أن هذا السبيل هو سبيل الله الذي حذر الله سبحانه المؤمنين أن يخالفوه، وهو ما كان عليه المهاجرون والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهم الذين أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

إن على كل مسلم أن يعلم ما هو المنهج الصحيح من ضمن المناهج الكثيرة، التي تنتسب إلى الإسلام، هذا المنهج الذي طالما غفل عنه جماعات من المسلمين قديماً وحديثاً، ولم يتنبهوا له، أو أنهم تنبهوا له ولم يرعوه حق رعايته.

هذا المنهج هو منهج الفرقة الناجية، التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة: «ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعون فرقة في الأهواء، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة».

وفي الحديث المروي في المسانيد والسنن تفسيرٌ لهذه الرواية وهي قوله ﷺ حين

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه في (المقدمة/ اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين: ٤٣).

سئل عن الفرقة الناجية: من هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي»(١).

فمن استمسك بهذا السبيل: سبيل المؤمنين الأوائل من المهاجرين والأنصار، كان من الناجين يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وطالما أن الأمر كذلك فإنه لا بد للدعوة الإسلامية في هذا العصر خاصة من أمرين:

أولهما: تصفية دين الإسلام مما هو غريب عنه مما هو مخالف للكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم كالشرك، وجحد الصفات الإلهية وتحريفها باسم التأويل، والاجتهادات الخاطئة، والأحاديث الضعيفة والموضوعة والمنكرة وغيرذلك.

أما الأمر الثاني: فهو تربية الناس - والجيل الناشىء خصوصاً ـ على هذا الإسلام المصفى من كل شائبة تربية إسلامية صحيحة منذ نعومة أظفاره، ورأس ذلك وأساسه وأُسُّه: توحيد الله سبحانه، وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، والكفر بما يُعبد من دونه، فإن حاجة الخلق إلى ذلك وإلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، فحاجتهم إليه فوق حاجتهم للطعام والشراب، بل وإلى النَّفَس الذي لا حياة لهم إلا به.

هذا الأمر المهم العظيم الذي لأجله انقسم الناس إلى مؤمنين وكفار، ودخلوا به الجنة أو النار، هو أجلُّ ما يقضى فيه الأوقات وتصرف في سبيله الأموال، بل وتبذل النفوس الغالية رخيصة لأجل إعلاء كلمة الله، فحري بنا أن نحرص كل الحرص على تعلُّم توحيد الله تعالى وتعليمه، والحرص على الابتعاد عما يناقضه من الشرك واتخاذ الصالحين والأنبياء والملائكة وغيرها معبودات مع الله، كما كان عليه أهل الجاهلية، الذين جاء نبينا محمد ﷺ بمخالفتهم في هذا الأمر العظيم، وفي غيره.

ذلك أن جميع الرسل والأنبياء بعثوا بالتوحيد وهو إفراد الله بالعبادة، قال تعالى:

---

(١) حسن: رواه الترمذي في (الإيمان/ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة: ٢٦٤١).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال عز اسمه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال سبحانه: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وقد بقي الناس بعد آدم عشرة قرون على التوحيد، ثم حدث الشرك بشبهة تعظيم الصالحين. والدليل قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسماء رجالٍ صالحينَ من قوم نوحٍ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومِهم أن انصبوا إلى مجالِسِهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبِدَتْ[1].

وهذا يدل على أهمية العلم الشرعي والخسارة العظيمة بفقدانه. فلما حصل هذا أرسل الله نبيه نوحاً عليه السلام إليهم لما غلوا في الصالحين، ونُسي العلم، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٠]. وقد ذكر الله في سورة نوح وغيرها قصته معهم، واستكبارهم عن الإيمان، وإفراد الله بالعبادة، وأنه عليه السلام نوّع الدعوة لهم، ليكون أنجع فيهم، فلم يؤمن معه إلا قليل، ثم أغرقهم الله، فأدخلهم جهنم، أعاذنا الله منها.

وقد أخبر سبحانه أنه أرسل إلى عادٍ أخاهم من القبيلة هوداً، وإلى ثمود أخاهم صالحاً، وشعيباً إلى مدين، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال عز من قائل: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير/ باب: ﴿وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ برقم: ٤٩٢٠).

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [الأعراف: ٨٥]، فكل الأنبياء بعثوا بالتوحيد كما تقدم.

ولما أرسل الله نبينا محمداً ﷺ كسر تلك الأصنام بعينها التي عبدها قوم نوح عليه السلام، والتي توارثها المشركون، وغيرها من الأصنام، وقد أرسل إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويحبون الله ويذكرونه كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقرُّب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين، قال تعالى: (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) [الزمر: ٣]. فجدَّد لهم نبينا محمدٌ ﷺ دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، وأخبرهم أن هذا التقرب حق لله وحده، ولا يصلح منه شيء لغير الله، لا لملَك مقرب، ولا لنبي مرسل ولا غيرهما.

قال تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) [الزمر: ١١-١٥].

وقد كان هؤلاء المشركون يقرون بأن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات السبع وما فيهن، والأرضين السبع وما فيهن، كلهم عبيده، وتحت تصرفه وقهره.

والدليل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ

ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) [يونس: ٣١]. وقوله تعالى: (قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ) [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. وغير ذلك من الآيات.

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يدخلهم في الإسلام، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة، بأن لا يعبد إلا الله، ويكفر بما يعبد من دونه من الأنبياء والملائكة والصالحين والمقبورين وغيرهم، وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: (وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا) [الجن: ١٨]. وقال سبحانه: (لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ) [الرعد: ١٤]. وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والذبح كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام، وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء لا يريدون إلا شفاعتهم، والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون.

وهذا التوحيد هو معنى قولك (لا إله إلا الله) فإن الإله هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً، أو نبياً، أو ولياً صالحاً، أو شجرة، أو قبراً، أو جنياً، فإن مشركي العرب لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق، فإنهم يعلمون أن ذلك هو الله وحده كما تقدم، وإنما أرادوا بالإله: الذي يقصد بالعبادة، فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وأن يكفروا بما يُعبد من دون الله، فأبوا عليه ذلك، وجرى ما هو معروف من نصر الله نبيه عليهم، والتمكين لدينه في الأرض، كما بيّنتُ ذلك في كتابي «سيرة المصطفى ﷺ»[١].

---

(١) هو فصول فيما صحّ من السيرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وذكر اهتمامه بتوحيد الله، =

إذا علمت ذلك، وعلمت الشرك بالله الذي حرّمه الله أشد من تحريم الزنى وقتل النفس التي حرم الله والذي قال الله فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]. وعرفت دين الرسل من أولهم إلى آخرهم، الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما وقع فيه فئام[١] من أمة محمد ﷺ من الشرك، وضممت إلى ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبدَ قبائل من أمتي الأوثان»[٢]، وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلياتُ نساء دوسٍ على ذي الخلصة» وذو الخلصة: طاغيةُ دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[٣]. وقوله ﷺ: «لا يذهَبُ الليل والنهار حتى تُعبدَ اللاتُ والعُزى»[٤].

إذا علمت ذلك أفادك فائدتين:

الأولى: الفرح بفضل الله وبرحمته، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

الثانية: الخوف العظيم من الشرك، فإن سادات الأولياء خافوا منه كمثل نبي الله وخليله إبراهيم ﷺ فقد قال الله عنه أنه دعا ربه بقوله: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وكذلك نبي الله وخليله محمد ﷺ فإنه كان يدعو في دُبُرِ صلاته: «اللهم إني أعوذُ بِكَ مِنَ الكُفرِ، والفَقْرِ، وعَذَابِ القَبْرِ»[٥]. وخصوصاً أن الله قصَّ علينا في

= وإفراده بالعبادة، والحرص على هداية الناس وذكر أيامه وغزواته وسراياه، وأخلاقه الرفيعة، وشمائله الفاضلة، وهو مقتبسٌ مما كتبه العلامة أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ﷺ، وكتب العلامة محمد ناصر الدين الألباني مع ترجيح اجتهاداته رحمه الله في تصحيح أحاديث ما سوى الصحيحين.
أسأل الله العظيم أن ييسر طباعته قريباً.

(١) أي: جموع كثيرة.
(٢) صحيح: رواه أبو داود في (الفتن والملاحم/ ذكر الفتن ودلائلها: ٤٢٥٢).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري في (الفتن/ باب: تغيُّر الزمان حتى تعبد الأوثان: ٧١١٦) - واللفظ له - ومسلم في (الفتن: ٧٢٩٨) وفيه: «.. حول ذي الخلصة». وكانت صنماً تعبدُها دوسٌ في الجاهلية، بِتَبَالَةَ.
(٤) رواه مسلم في (كتاب الفتن: ٧٢٩٩).
(٥) صحيح الإسناد: رواه النسائي في (الاستعاذة/ الاستعاذة من الفقر: ٥٤٦٧).

القرآن الكريم عن قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صلاحهم وعلمهم، وأن الله فضلهم على أهل زمانهم، بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. مع ذلك طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً غير الله يعبدونه، كما أن للمشركين آلهة يعبدونها، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. يعني: تجهلون عظمة الله وما ينبغي أن ينزه عنه من الشريك.

واعلم أن الله سبحانه من حكمته أنه جعل لكل نبي عدواً، والدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقال تعالى في الحديث القدسي: «إني خلقتُ عبادي حُنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهُمُ الشياطينُ فاجتالتهُم عن دينهِمْ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنْزِلْ بِهِ سلطاناً»[1]، إذا علمت ذلك كله، عظم فرحك بفضل الله وبرحمته، وزاد خوفك من طرائق الشياطين في صد الناس عن سبيل الله، فقد قال إمامهم إبليس لربك عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]. فقد قعد إبليس وجنوده من الشياطين على الطريق الموصلة إلى الله، ومعهم فصاحة وتزيين وشبه، فالواجب عليك أن تتعلم من دين الله ما يصير سلاحاً لك تقاتل به هؤلاء الشياطين.

ولا تخف ولا تحزن إذا أقبلت على الله، وتوكلت عليه، وأصغيت إلى حجته وبيناته ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، و ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه، والموحد الواحد يغلب ألفاً من علماء المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]. فجند الله هم الغالبون بالحجة

(١) رواه مسلم في (الجنة: ٧٢٠٧)، قال في «لسان العرب»: فاجتالتهم الشياطين، أي: استخفَّتهم فجالوا معهم في الضلال، وجالَ واجتالَ إذا ذهب وجاء، ومنه الجَولان في الحرب، واجتال الشيء إذا ذهب به، وساقه، والجائل: الزائل عن مكانه.

واللسان، كما أنهم هم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على المسلم الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح.

وقد منَّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. فلا يأتي صاحب باطل بحجة أو شبهة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

ومن ذلك أن تعلم ما كان عليه أهل الجاهلية من أمور خالفهم فيها رسول الله ﷺ، فإن ذلك من أهم المهمات التي وردت في الكتاب والسنة الصحيحة، وذلك لتحذَر منها، ثم تحذِّر منها، وتكون معرفتها زاداً لك وسلاحاً في وجه المشركين.

فلقد كان البشر قبل البعثة المحمدية في جاهلية وشر، ثم أتى الله سبحانه بهذا الخير العظيم (دين الإسلام) كما روى البخاري ومسلم - واللفظ له - عن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألونَ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الخير، وكنتُ أسألُهُ عنِ الشرِّ مخافة أن يُدْرِكَني، فقلت: يا رسولَ اللهِ، إنا كُنَّا في جاهِلِيَّة وشَرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: «نعم» فقلتُ: هل بعد ذٰلكَ الشرِّ من خيرٍ؟ قال: «نعم، وفيه دَخَنٌ» قال: قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: «قومٌ يستنُّونَ بغيرِ سُنَّتي، ويهتدُون بغيرِ هَديِي، تعرفُ مِنهُم وتنكِرُ» قلت: هل بعد ذٰلكَ الخيرِ من شرٍّ؟ قال: «نعم، دُعاةٌ على أبوابِ جهنَّمَ، من أجابَهُمْ إليهَا قذفُوه فِيهَا» فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، صِفهُم لنا، قال: «نعم، هُم قومٌ من جِلدَتِنا، ويتكلَّمون بألسنَتِنا» قلتُ: فما ترى إن أدركني ذٰلكَ؟ قال: «تَلزَمُ جماعَةَ المسلمينَ وإمامَهُمْ» فقلت: فإن لم يَكُنْ لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: «فاعتزِلْ تلك الفرقَ كلَّها، ولو أن تعضَّ على أصلِ شجرَةٍ، حتى يدرِكَكَ الموتُ، وأنتَ على ذٰلكَ»[1]. وفي رواية أخرى لمسلم (٤٧٨٥):

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (المناقب/ علامات النبوة في الإسلام: ٣٦٠٦)، ومسلم في (الإمارة: ٤٧٨٤).

«يكون بعدي أئمةٌ لا يهتدونَ بِهُدَايَ، ولا يستنُّون بسُنَّتي، وسيقُومُ فيهم رجالٌ قُلُوبُهُم قلوبُ الشياطينِ في جُثمَانِ إنسٍ».

فالجاهلية كانت قبل البعثة، وقد يتلبس الإنسان المسلم بشيء من صفات الجاهلية، فيقال فيه: «إنك امرؤٌ فيكَ جاهليةٌ»[1]. وكمثل الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة على الميت، ويأتي الكلام على ذلك في أبواب الكتاب بإذن الله، وهذه لا يكفر صاحبها، فهي من أبواب الكبائر، أما التي يكفر صاحبها، فمثل: دعاء غير الله، وطاعة العلماء والحكام في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله.

ويأتي الكلام على هذا مفصلاً بمشيئة الله، ويعرف كل من النوعين المكفِّر وغير المكفِّر بالدليل الشرعي من كتاب وسنة وما كان عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم.

الأدلة على وجوب مخالفة أهل الجاهلية:

الأدلة كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) قاله رسول الله ﷺ لأبي ذر، وتأتي القصة في المسألة [٨٥] من هذا الكتاب.

[الجاثية: ١٨].

فنهى الله تعالى نبيه ﷺ أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون، ويدخل فيه (كل من خالف شريعته، وأهواؤهم هو ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر، الذي هو من موجبات دينهم الباطل وتوابعِ ذلك، فهم يهوونه، وموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه)[١].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]. ﴿رَٰعِنَا﴾ حافظنا، من راعيته إذا تأملته وتعرفت أحواله، وكانت اليهود تقوله لرسول الله ﷺ تشبهاً بالمؤمنين، وهو بلغتهم سب بالرعونة، فينوونه، فنهى الله عنه المؤمنين[٢].

بيان سوء عاقبة من اتبع أهل الجاهلية:

جاءت أدلة صريحة في بيان العاقبة الشنيعة التي أعدها الله تعالى لمن خالف أمره، وتشبه بأعدائه، مما يدل على قبح الفعل، وشناعته، ومن هذه الأدلة:

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]. ففي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، والخطاب مع الرسول ﷺ والمراد أمته[٣].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾. ولم يقل دينهم لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، ومن ترك الدين اتبع الهوى لا محالة[٤].

قال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله: (ومتابعتهم فيما يختصون به من دينهم وتوابع

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ٨٥).
(٢) «التفسير الوجيز على هامش الكتاب العزيز» لكاتب هذه السطور، ص (١٦).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» عند تفسير الآية الكريمة.
(٤) «التفسير الوجيز» ص (٢٢).

دينهم، اتباع لأهوائهم، بل يحصل اتباع أهوائهم بما هو دون ذلك)[١].

قال الله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

قال أبو العباس رحمه الله: ثم قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ ﴿وَخُضْتُمْ﴾، خبرٌ عن وقوع ذلك في الماضي، وهو ذمٌّ لمن يفعله إلى يوم القيامة، كسائر ما أخبر الله به عن الكفار والمنافقين عند مبعث محمد ﷺ، فإنه ذمٌّ لمن حاله كحالهم إلى يوم القيامة)[٢].

وصف المتشبهين بما يفيد شناعة فعلهم:

كما في قوله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثةٌ: مُلحدٌ في الحرم، ومبتغٍ في الإسلامِ سُنة الجاهلية، ومُطَّلِبُ دمِ امرىءٍ بغير حقٍّ ليهريق دمه»[٣].

قاعدة كلية عامة: أن هذه الأمة ستتبع سَنَنَ من كان قبلها:

ودليل ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تأخذَ أمتي بأخذِ القرون قَبْلَها: شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ» فقيل: يا رسول الله كفارسَ والرومِ؟ فقال: «ومن الناسُ إلا أولئك؟»[٤]. وقوله ﷺ: «لَتتبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شِبراً شِبراً، وذراعاً ذراعاً، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ تبعتُمُوهُمْ»[٥].

وفي ذلك مسائل:

الأولى: العلم بذلك.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٨٥-٨٦).

(٢) «الاقتضاء» (١/ ١٠٤-١٠٥).

(٣) رواه البخاري في (الديات/ من طلب دم امرىءٍ بغير حقٍّ: ٦٨٨٢).

(٤) رواه البخاري: في (الاعتصام/ قول النبي ﷺ: «لتتبعُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم»: ٧٣١٩).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري - واللفظ له - برقم (٧٣٢٠)، ومسلم في (العلم: ٦٧٨١).

الثانية: الحذر الشديد من مشابهة المشركين في أي شيء.

الثالثة: الخوف الشديد من أن يتشبه بهم من غير قصد، ففيه:

الرابعة والخامسة: أهمية العلم، والخسارة العظيمة بفقدانه.

السادسة: أنه ﷺ يخاف على أمته اتباعهم، فلذلك قال ما قال على جهة التعيير والتوبيخ.

السابعة: قوله ﷺ: «شبراً بشبر، وذراعاً بذراع» كناية عن شدة الموافقة لهم في الكفر والمعاصي، وهو خبر معناه النهي عن اتباعهم، ومنعهم من الالتفات لغير دين الإسلام.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(١)].

والتشبه يشمل كل شبه يكون في الأعياد والأخلاق والملابس والكلام وغير ذلك.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال: «إن هذه من ثيابِ الكُفَّار، فلا تلبَسْها»[(٢)]. والأمر يطول في هذا، ولعل فيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى.

إذا علمت هذا، زاد حرصك على تعلم ذلك، وتعليمه، وتفهمه، وتفهيمه، خصوصاً إن علماء هذه الأمة الخاتمة حذروا من سلوك مسالك الجاهلية النكراء، بعدما رأوا ما وقع فيه فئام الناس من البدع والمحدثات، والتشبه بأهل الجاهلية الجهلاء، من الأميين والكتابيين، ووقعوا فيما حذَّر منه رسول الله ﷺ، فكان من نتائج ذلك تأليف الكتب المحذرة من الوقوع في ذلك، فألفت في ذلك مؤلفات عديدة، منها ما يتحدث عن البدع عموماً، وفي ضمنه التحذير من مشابهة الكفار، ومنها ما هو خاص بالتحذير من مشابهة الكفار.

ومن هذه المؤلفات هذا المؤلَّف الذي بين يديك، وهو «مسائل الجاهلية التي

---

(١) حسن صحيح: رواه أبو داود في (اللباس/ في لبس الشهرة: ٤٠٣١).

(٢) رواه مسلم: في (اللباس: ٥٤٣٤)، والعُصْفُر: نبات يصبغ به، وقد عصفرت الثوب، فتعصفر. انظر: «لسان العرب» مادة: «عصفر».

خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية» ألف أصله الإمام العلاّمة المجدد: أبو عبدالله محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وتوسع فيها على هذا النحو، علاّمة العراق: الإمام أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله الألوسي رحم الله الجميع.

ولأهمية هذا الكتاب وأصله، رغبت في التعليق عليه ونشره، لعل الله تعالى أن يَنفعَ به المسلمين، وأن يجعله ذخراً لي ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وقد قمت بتخريج الأحاديث والآثار قدر الإمكان، واعتمدت ترجيح العلاّمة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في تصحيح أحاديث ما سوى الصحيحين، وجعلتها في الهامش بشكل مسود: صحيح أو حسن أو غيرهما ثم أخرجه من مصدره.

وهذه هي الطبعة السادسة لهذا الكتاب المهم.

ومن رأى فيها شيئاً من الخطأ فليبادر إلى نصيحتي مشكوراً، بأن يبينه لي، وليكن رائده في هذا المجال وغيره النصح والإرشاد، والتواصي بالحق، ورحم الله عبداً دلني على خطئي، وأهدى إليّ عيوبي، وليكن النصح مقروناً بالدليل من كتاب وسنة وما كان عليه سلف الأمة، وجزاه الله خيراً.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

هذا وصلى الله على عبده ونبيه محمد وعلى النبيين من قبله وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه

علي بن مصطفى خلوف

السبت: ١٧/١٠/١٤٢٣هـ

ص.ب ٣٢٥٣٦٦ الرياض ١١٣٧١

ترجمة موجزة لمؤلف الأصل
الإمام العلاّمة محمد بن عبدالوهاب رحمه الله

● هو الإمامُ العلاّمةُ المُصْلحُ، أبو عبدِالله محمَّدُ بنُ عبدِالوهَّابِ بنِ سُليمانَ ابنِ عَليٍّ التَّميميُّ.

● ولد رحمه الله في بَلْدَةِ العُيَيْنَةِ[1] مِن بِلادِ نجدٍ سنةَ (١١١٥) من هجرةِ المُصطفى ﷺ في بيتِ عِلمٍ ودِينٍ، فقد كان والدُه الشَّيخُ عبدُالوهَّابِ (ت ١١٥٣) قاضيَ العُيَيْنَةِ ومُفْتِيَها، وكان جدُّهُ الشَّيخُ سُلَيمانُ (ت ١٠٧٩) قاضيَ نجدٍ عامَّةً ومُفْتِيَها.

● بدأ رحمه الله في طلبِ العِلمِ مُبَكِّرًا، فقد حَفِظَ القرآنَ قبلَ العاشِرَةِ مِن عُمُرِهِ.

● أخذ عن أبيه شيئاً من العلوم، ثُمَّ استأذَنَه في الخُروجِ إلى الحجِّ، فحجَّ، ثُمَّ قصدَ المدينةَ النبويَّةَ، ثُمَّ عادَ إلى العُيَيْنَةِ، وأكمل القراءةَ على والِدِهِ.

● ثمَّ سافَرَ بعدُ إلى مكَّةَ والمدينةِ، وأخَذَ يَتَرَدَّدُ على عُلمائِهما، فكانَ ممن أفاد منه الشَّيخُ عبدُالله بنُ إبراهيمَ بن سيفٍ النَّجديُّ نزيلُ المدينةِ النَّبويَّةِ، والشَّيخُ محمَّد حياة السِّنديُّ (ت ١١٦٥).

● ثم عاد مرَّةً أخرى إلى العُيَيْنَةِ، وقرأ فيها على والِدِهِ، وبَدَأَ دعوتَه، حَيْثُ دعا إلى التَّوحيدِ والتَّمَسُّكِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، على ما كان عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم، وحذَّرَ من الشِّركِ الَّذي كان سائِداً في معظمِ أرجاءِ المعمورة.

● ثمَّ رحلَ إلى العراقِ، وكان يَتَرَدَّدُ فيها بَيْنَ البَصْرَةِ والزُّبيرِ، وَأخَذَ هُناكَ عن الشَّيخِ محمَّدٍ المَجموعيِّ.

---

(١) تقع العيينة شمال غرب مدينة الرياض، بينها وبين الرياض مسيرة (٧٠) كيلومتراً تقريباً.

● ثمَّ لمَّا أرادَ العودةَ إلى بلادِهِ مرَّ بِبَلَدِ الأحساءِ، وَنَزَل هناك على الشَّيخِ عبدِاللهِ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِاللَّطيفِ الأحسائِيِّ، وأقامَ عِندَهُ يَتَلَقَّى عنه العِلْمَ.

● ثمَّ رَجع إلى نجدٍ، ونَشِطَ في دعوتِهِ إلى اللهِ تَعالى، آمِرًا بالمعروفِ، ناهيًا عن المُنكَرِ، مُجاهِدًا في سبيلِ اللهِ بكُلِّ ما يملكُ، فأحيا اللهُ على يَدَيْهِ سُنَنًا قدْ نُسِيتْ، وتُرِكَ العَمَلُ بها، وعَمَّ التَّوحيدُ أرجاءً كثيرةً من العالَمِ الإسلاميِّ.

● تتلْمَذَ على يَدَي الشَّيخِ طلبةٌ نُجباءُ، أصبحوا بعدُ عُلَماءَ أجلَّاءَ، ساروا على درب الدعوة إلى الله، فَنَفَعَ اللهُ تَعَالى بِهِم، ومِن هؤلاءِ: أبناؤُه: الشَّيخُ عبدُاللهِ (ت ١٢٤٤)، والشَّيخُ حُسَينٌ (ت ١٢٤٤)، والشَّيخُ عليٌّ (ت ١٢٤٥)، وحفيدُه الشَّيخُ عبدُالرَّحمنِ بنُ حَسَنٍ (ت ١٢٨٥)، والشَّيخُ حمدُ بنُ ناصِرِ بنِ مُعَمَّرٍ (ت ١٢٢٥)، والشَّيخُ حُسينُ بنُ غَنَّامٍ (ت ١٢٢٥)، والشَّيخُ عبدُالعزيزِ الحُصَيِّنُ (ت ١٢٣٧).

● نصر الأمير محمد بن سعود رحمه الله أمير الدرعية دعوة التوحيد التي قام بها الشيخ رحمه الله تعالى، فكان الخير العظيم، وانتشرت دعوة التوحيد بفضل الله وتأييده للإمام محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب رحمهما الله.

● كان ذلك من أكبر أسباب نجاح جهود الشيخ رحمه الله إضافة إلى الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، والحكمة والموعظة الحسنة.

● استمر الوضع هكذا حتى بعد إعلان الجهاد بالسيف عام ١١٥٨هـ، وإزالة القبور والأوثان التي تُعبد من دون الله بالقوة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

● جد الشيخ رحمه الله في الدعوة والجهاد، وساعده أنصار التوحيد من آل سعود، رحمهم الله تعالى[1].

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة بتصرف من كتاب «الإمام محمد بن عبدالوهاب - دعوته وسيرته»=

● ألَّفَ الإمامُ رَحِمَهُ اللَّهُ كتبًا ورسائلَ كثيرةً، قامتْ جامعةُ الإمامِ محمَّدِ بنِ سعودٍ الإسلاميَّةُ بجمعِ أكثرِها، وطبعِها على نَفَقَتِها، وتَوزِيعِها، فكانتْ أكثَرَ مِن عشرة مُجلَّداتٍ.

ومِن هٰذِهِ الكتبِ:

* كتابُ التَّوحيدِ الَّذي هو حَقُّ اللهِ على العَبيدِ[1].

* مسائِلُ الجاهِليَّةِ.

* كشفُ الشُّبُهاتِ.

* الأصولُ الثَّلاثةُ.

* مُختصرُ زادِ المعَادِ.

* مُختصرُ السِّيرةِ.

● ألَمَّ بالشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ مرضٌ شديدٌ في أواخِرِ شهرِ شوَّال عامَ ١٢٠٦، واستمرَّ مَعَه المَرَض حتَّى توفَّاه اللهُ تَعالى في أواخِرِ شهرِ ذي القَعدةِ من العامِ نفسِه، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة.

***

=لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ - طباعة رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء.

(١) وقد قام العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ بشرحه شرحاً لطيفاً، وذلك في كتابه «القول السديد شرح كتاب التوحيد»، وقمت بالتعليق عليه في ذي الحجة عام ١٤٢١هـ، وهو مطبوع ومتداول، وتوزعه مؤسسة الجريسي للتوزيع.

ترجمة موجزة للشارح العلاّمة الشيخ محمود شكري الألوسي رحمه الله

○ هُوَ أبو المَعالي محمود شكري بنُ عبدِالله بنِ محمَّدِ بنِ أبي الثَّناءِ الألوسي.

● ولد رحمه الله في ١٩/ ٩/ ١٢٧٣هـ في بغداد من بلاد العِراقِ.

● نَشَأ رحمه الله في بيتِ عِلمٍ ودِينٍ، فقد كان كثيرٌ من أسرتِهِ علماءَ وأدباءَ، فأبوه عبدُالله (ت ١٢٩١) كان عالمًا، وكذلك جدُّه أبو الثَّناءِ محمودٌ صاحبُ «روح المعاني»، وإنْ كان عنده شيءٌ من البِدَعِ، فاللهُ يغفر له، ومِن هؤلاء عمُّهُ نُعمانُ خيرُ الدِّين[1] صاحبُ «جَلاءِ العَينينِ»، فقد كان خيِّراً ديِّناً عالِماً وقُوراً.

● بَدَأ أبو المعالي رحمه الله في طلب العلم في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ جدًّا، فأخذَ عن أبيهِ مبادئ العربيَّةِ والخَطِّ، ثُمَّ بعدَ وفاةِ أبيهِ كَفَلَه عَمُّهُ خيرُ الدِّينِ فأخذَ عنه، كما أخَذَ عن مشايخِ بَلَدِهِ، ومنهم الشَّيخُ إسماعيل بنُ مصطفى.

● ألَّفَ أبو المعالي رحمه الله مؤلَّفاتٍ كثيرةً نافعةً إن شاء الله، ومِن هذهِ المؤلَّفاتِ:

* فتحُ المَنَّانِ، وهو كتابٌ أتمَّ به مِنهاجَ التَّأسيسِ في الرَّدِّ على داوُدَ بنِ جِرْجِيْسَ لِلشَّيخِ عبدِاللطيفِ بنِ عبدِالرَّحمنِ بنِ حسنٍ.

* بلوغُ الأرَبِ في معرفةِ أحوالِ العربِ.

* شرحُ مسائلِ الجاهِلِيَّةِ، وهو كتابُنا هذا.

* شرحُ منظومةِ عمودِ النَّسَبِ.

---

(١) لا يجوز التسمية بـ«خير الدين» ونحوها لما فيها من تزكية النفس المنهي عنها.

● لقد كان الشَّيخُ رحمه الله على عقيدةِ ومنهج السَّلَفِ الصالح رضوان الله عليهم، يظهرُ ذلكَ جليًا في مؤلَّفاتِه، وخاصَّةً في «شرحِ مسائل الجاهلية» و «فتحِ المنَّانِ».

● تُوُفِّيَ أبو المَعالي رحمه الله في ٤/ ١٠/ ١٣٤٢هـ على أثرِ مرضٍ ألمَّ به في أواخِر شهرِ رمضانَ من العامِ نفسِهِ، نسألُ اللهَ تعالى له الجنة والنَّجاةَ مِن النَّارِ، وجزاه على ما قدَّم لِلمُسلِمينَ خَيرَ الجزاءِ.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لِلَّهِ الَّذي هدانا لِلدِّين المُبينِ، وأنارَ لَنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ بأوضحِ البَراهينِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى سَيِّدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الَّذِي أنقَذَ بشريعتِهِ الغراءِ مِن جهلِ الجاهِلينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الغُرِّ المَيامينِ، الذينَ جاهَدوا في اللهِ حَتَّى أتاهُمُ اليَقينُ.

أمَّا بَعْدُ:

فيقولُ العبدُ المُفتَقِرُ إلى عفوِ اللهِ وغُفرانِهِ: محمود شُكري الألوسيُّ البغداديُّ ـ كان اللهُ تعالى له، وأحْسَنَ عَمَلَهُ، وَأنالَهُ مِنَ الخيرِ أمَلَهُ ـ: إنِّي وقَفْتُ على رسالةٍ صغيرةِ الحَجْمِ، كثيرةِ الفوائِدِ، تشتملُ على نحو مائةِ مسألةٍ مِنَ المسائِلِ الَّتي خالَفَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ أهلَ الجاهِلِيَّةِ مِنَ الأمِّيِّينَ والكتابِيِّينَ، وهي أمورٌ ابتدَعوها ما أنْزَلَ اللهُ بها مِن سلطانٍ، ولا أُخِذَتْ عن نبيٍّ من النَّبِيِّينَ. ألَّفَها الإمامُ العالِمُ العلاَّمةُ، القُدوةُ الفهَّامةُ مُحيِي السُّنَّةِ السَّنِيَّةِ، ومُجَدِّدُ الشَّريعةِ النَّبَوِيَّةِ، مُحَدِّثُ عصرِه، وحافِظُ دهرِه، تذكرةُ السَّلفِ، وعُمدةُ الخَلَفِ أبو عبدالله محمد بن عبدالوهاب النجدي الحنبلي، تَغَمَّدَهُ اللهُ تعالى برحمتِهِ، وأسْكَنَهُ فَسيحَ جَنَّتِهِ.

بَيْدَ أنَّ مسائلَ تلكَ الرِّسالةِ في غايةِ الإيجاز، بَلْ كادتْ تُعَدُّ من قَبيلِ الألغازِ، قد عَبَّرَ عن كثيرٍ منها بعبارةٍ مُجْمَلَةٍ، وأتى فيها بِدلائلَ ليست مشروحةً ولا مُفَصَّلَةً، حتَّى إنَّ مَن ينظرُها يظنُّ أنها فهرسُ كتابٍ، قد عُدَّت فيه المسائلُ من غيرِ فُصولٍ ولا أبوابٍ، ولاشتمالِها على تِلكَ المسائِلِ المُهِمَّةِ، الآخِذَةِ بِيَدِ المُتَمَسِّكِ بِها إلى منازِلِ الرَّحْمَةِ، أحببتُ أنْ أُعَلِّقَ عليها شَرحاً يُفَصِّلُ مُجْمَلَها، ويَكْشِفُ مُعْضَلَها، مِنْ غير إيجازٍ مُخِلٍّ، ولا إطنابٍ مُمِلٍّ، مُقْتَصِراً فيه على أوضحِ الأقاويلِ، ومُبيِّناً

ما أورَدَه مِنْ بُرهانٍ ودليلٍ، عَسى اللهُ أنْ يَنفَع بذلكَ المُسْلِمينَ، وَيَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِن عِبادِهِ المُتَّقينَ، فَيكونَ سَبَباً للثَّوابِ، والفوزِ يومَ العرضِ والحِسابِ، والأمنِ مِن أليمِ العَذابِ، وما تَوفيقي إلاَّ باللهِ، عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ وإليه أُنيبُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذِهِ مَسائِلُ خالفَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ ما عَلَيْهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ الكِتابِيّينَ والأُمِّيّينَ، مِمَّا لا غِنَاء لمُسْلِمٍ عَن مَعْرفَتِها.

والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ   وَبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ

وَأَهَمُّ ما فيها وَأَشَدُّهُ خَطَراً، عَدَمُ إيمانِ القَلْبِ بِما جاءَ به الرَّسولُ ﷺ، فَإِنِ انْضافَ إلى ذلكَ اسْتِحْسانُ دِينِ الجاهِلِيَّةِ والإيمانُ بِهِ، تَمَّتِ الخَسارةُ والعياذُ باللهِ تعالى، كما قال عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

* * *

المسألة الأولى

أنهم يَتَعَبَّدونَ بإشْراكِ الصَّالِحينَ فِي عِبادةِ اللهِ تعالى، وَيَرَوْنَ ذلكَ مِنْ تَعْظيمِ الصَّالِحينَ الَّذي يُحِبُّهُ اللهُ، ويُريدونَ ـ أيضاً ـ بِذلكَ شَفاعتَهم؛ لِظَنِّهِم أنَّهم يُحِبُّونَ ذلكَ.

كَما قالَ تَعالى في أوائلِ «الزُّمَرِ» [٢-٣]: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقالَ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وهذهِ أعظمُ مسألةٍ خالَفَهم فيها رَسولُ اللهِ ﷺ، فَأتى بالإخلاص، وأخْبَرَهم أنّه دِينُ اللهِ الَّذي لا يُقْبَلُ مِن أحَدٍ سِواهُ وأنَّ مَنْ فَعَلَ ما اسْتَحْسَنوا، حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ، ومأواهُ النّارُ.

وهذه المسألةُ هي الدِّينُ كُلُّهُ، وَلأجْلِها تَفَرَّقَ النّاسُ بينَ مسلمٍ وكافِرٍ، وعندَها وَقَعَتِ العَداوةُ، ولأجلِها شُرِعَ الجهادُ؛ كما قال تَعالى في «البقرة» [١٩٣]: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

***

الثـانيـة

أنَّهم مُتَفَرِّقونَ، ويَرَوْنَ السَّمْعَ والطَّاعةَ مَهانَةً ورَذالةً.

فَأَمَرَهُمُ اللهُ بالاجتِماعِ، وَنَهاهُم عَنِ التَّفَرقةِ:

فقالَ عزَّ ذكرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

يُقالُ: أرادَ سُبحانه بما ذُكِرَ ما كانَ بين الأوسِ والخَزْرَجِ مِنَ الحُروبِ التي تَطاوَلَت مِائةً وَعِشرينَ سَنَةً، إلى أنْ ألَّفَ سُبحانَه بينهم بالإسلام، فَزالتِ الأحقادُ، قاله ابنُ إسحاقَ، وكان يومُ بُعاث آخِرَ الحُروبِ التي جَرَت بينهم، وقد فُصِّلَ ذلكَ في «الكامل».

ومِن النَّاسِ مَن يقولُ: أراد ما كان بَيْنَ مُشركي العَرَبِ مِنَ التَّنازُعِ الطَّويلِ والقتالِ العريضِ، ومنه حربُ البَسوسِ، كما نُقِلَ عن الحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَالَ تَعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ١٦].

إلى غيرِ ذلِكَ من الآيات النَّاصَّةِ على النَّهيِ عنِ الاستبدادِ والتَّفرُّقِ وعَدَمِ الانقِيادِ والطَّاعةِ مِمَّا كانَ عليه أهلُ الجاهِلِيَّةِ.

***

الثالثة

أنَّ مُخالَفةَ وليِّ الأمرِ، وعَدمَ الانقيادِ له ـ عندهم ـ فضيلةٌ، وبعضُهم يجعلهُ دِيْناً.

فخالفهم النَّبيُّ ﷺ في ذلك، وأمَرهم بالصَّبْرِ على جَوْرِ الوُلاةِ والسَّمعِ والطَّاعةِ والنَّصيحةِ لَهُمْ، وَغَلَّظ في ذلكَ، وأبدى وأعادَ.

وهذه الثلاثُ هي التي وَرَدَ فيها ما في الصَّحيح عنه ﷺ: «يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تُشْرِكوا به شَيْئاً، وأنْ تَعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميْعاً، وأن تُناصِحوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أمرَكُم».

وروى البُخاريُّ عن ابنِ عبّاس عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَن كَرِهَ مِنْ أميرِه شَيْئاً، فلْيَصْبِرْ، فإنه مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلطانِ شِبْراً، ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً»[١].

وَرَوى ـ أيضاً ـ عن جُنادةَ بنِ أبي أُميّة، قال: دَخَلنا على عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ وهو مريضٌ، فَقُلْنا: أصْلَحَكَ الله، حَدِّثْ بِحَديثٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِن رسولِ الله ﷺ، قالَ: دَعانا النَّبيُّ ﷺ فَبايَعَنا، فكان فيما أخَذَ عَلَينا: أنْ بايَعَنا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في مَنْشَطِنا وَمَكْرَهِنا وعُسْرِنا وَيُسْرِنا وأثَرَةٍ علينا، وأنْ لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَهُ؛ إلا أن تَرَوْا كُفْراً بَواحاً عندكم من الله فيه برهانٌ»[٢].

والأحاديثُ الصَّحيحةُ في هذا البابِ كثيرةٌ، ولم يقعْ خَلَلٌ في دِينِ النَّاسِ أو دُنياهُم إلاّ من الإخلال بِهذِه الوَصِيَّةِ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في (الفتن/ باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها»: ٧٠٥٣) واللفظ له، ومسلم في (الإمارة: ٤٧٩١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في (الفتن/ باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها»: ٧٠٥٥ و ٧٠٥٦) وبنحوه مسلم في (الإمارة: ٤٧٧١).

الرابعة

أنَّ دِينَهم مَبْنِيٌّ على أصولٍ: أعظَمُها التَّقْليدُ، فهوَ القاعدةُ الكُبرى لِجَميعِ الكُفَّارِ مِنَ الأوَّلينَ والآخِرينَ:

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤].

فَأَمَرَهُمُ اللهُ تعالى بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

... إلى غير ذٰلكَ مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ كانوا في رِبْقَةِ التَّقْليدِ، لا يُحكِّمونَ لَهم رأيًا، ولاَ يُشْغِلونَ فِكرًا؛ فلِذلِكَ تاهوا في أودِيَةِ الجَهالَةِ، وهكذا كُلُّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهم في أيِّ عصرٍ كانَ[1].

***

(١) وقد مشى على هذا المسلك الجاهلي من يفرض تقليد الأئمة والعلماء على المسلمين، ويقول أنه واجب شرعي، من المتسببين للعلم والفتوى أصلحهم الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الخامسة

الاقتداءُ بِفَسَقَةِ أهلِ العِلْمِ وجُهَّالِهِم وعُبَّادِهِم

فَحَذَّرَهُمُ اللهُ تعالى مِن ذلكَ بقولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقالَ تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

... إلى آيات أُخَرَ تُنادِي بِبُطْلانِ الاقتِداءِ بالفُسّاقِ وَأهْلِ الضَّلالَةِ والغَيِّ، وذلِكَ مِنْ سَنَنِ الجاهِلِيَّةِ وطرائِقِهِمُ المِعْوَجَّةِ[1].

***

(١) قريب من هذه المسألة: المسألة الثانية والسبعون.

السادسة

الاحتِجاجُ بِما كانَ عليه أهلُ القرونِ السَّالِفَةِ، مِن غَيرِ تَحكيمِ العَقلِ، والأخذِ بِالدَّليلِ الصَّحيح.

وقد أبطَلَ اللهُ تعالى ذلكَ بِقولِهِ في «طه» [٤٩-٥٤]: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۞ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۞ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۞ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ . . . إلخ.

وقالَ تَعالى في «القَصَص» [٣٦-٣٧]: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وَقالَ عَزَّ ذِكْرُه في سورةِ «المؤمنين» [٢٣-٢٥]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

وَقالَ تَعالى في «صٓ» [٦-٧]: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

فَجَعَلوا مَدارَ احْتِجاجِهِم على عَدَمِ قَبولِ ما جاءَت بِهِ الرُّسُلُ أنّه لم يَكُنْ عليهِ أسْلافُهُم، وَلا عَرَفوه مِنهم، فانْظُرْ إلى سُوءِ مَدارِكِهِم، وَجُمودِ قرائِحِهِم، وَلَو كانَت لَهُم أعينٌ يُبْصِرونَ بِها، وآذانٌ يَسمَعون بها، لَعَرفَوا الحَقَّ بدليلِهِ، وانْقادوا لِليَقينِ مِن غيرِ تَعْليلِهِ، وَهَكَذا أخلافُهُم وَوُرّاثُهُم، قَد تَشابَهت قُلوبُهُم.

السابعة

الاعْتِمادُ عَلى الكَثْرَةِ، والاحْتِجاجُ بالسَّوادِ الأعْظمِ، والاحْتِجاجُ عَلى بُطْلانِ الشَّيْءِ بِقِلَّةِ أهلِهِ.

فَأنْزَلَ اللهُ تَعالى ضِدَّ ذَلِكَ وما يُبْطِلُهُ، فَقَالَ في «الأنعام» [١١٦-١١٧]: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

فالكثرةُ على خِلافِ الحَقِّ لا تَسْتَوْجِبُ العُدولَ عَنْ اتِّباعِهِ لِمَنْ كانَ لَهُ بَصيرةٌ وَقَلْبٌ، فالحقُّ أحَقُّ بالاتِّباع، وإن قَلَّ أنْصارُهُ؛ كما قال تَعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤]، فأخْبَرَ اللهُ عن أهلِ الحَقِّ أنَّهم قليلٌ، غيرَ أنَّ القِلَّةَ لا تَضرُّهُمْ:

تُعَيِّرُنا أنّا قَليلٌ عَدِيدُنا فَقُلْتُ لَهُمْ إنَّ الكِرامَ قَليلُ

فالمقصودُ أنَّ مَن لَهُ بَصيرةٌ ينظرُ إلى الدَّليلِ، ويأخذُ ما يَسْتَنْتِجُهُ البُرْهانُ، وإنْ قَلَّ العارِفونَ بِهِ، المُنْقادونَ لهُ، ومن أخَذَ ما عَليه الأكثرُ، وما ألِفَتْهُ العامَّةُ من غيرِ نظرِ الدليلِ فهو مخطىءٌ، سالكٌ سبيلَ الجاهِلِيَّةِ، مقدوحٌ عند أهلِ البصائرِ.

***

الثامنة

الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريبًا.

فرد الله تَعالى ذلك بقوله في «هود» [١١٦]: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ومعنى الآيةِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تحضيضٌ فيه معنى التفجُّع، أي: فهلاَّ كان ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: الأقوام المقتربة في زمان واحد ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل، أو ذَوو فضل، على أن يكون البقية اسماً للفضل، والهاءُ للنقل، ومن هنا يقال: فلان من بقية القوم، أي: من خِيارِهم، ومنه قولهم: «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا»، ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قَصَصِهِم، وفُسِّر الفساد بالكفر وما اقترن به من المعاصي، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، أي: وَلَكِن قَليلاً ممَّن أَنْجَيناهُم؛ لِكَونِهِم كانوا ينهون.

***

التاسعة

الاستِدلالُ على المطلوب، والاحتجاجُ بِقومٍ أعْطوا مِن القُوَّةِ في الفَهْمِ والإدراكِ، وفي القُدْرةِ والمُلْكِ؛ ظَنَّا أنَّ ذلكَ يَمْنَعُهم من الضَّلالِ.

فَرَدَّ اللهُ تعالى ذلك عليهم بقوله سبحانه في «الأحقاف» [٢٤-٢٦]: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ومعنى الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ أي: قوَّينا عاداً وأقدَرْناهُم، و«ما» في قولِهِ تعالى: ﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ، و«إنْ» نافيةٌ، أيْ: في الَّذي، أو في شيءٍ ما مَكَّنّاكم فيه من السَّعَةِ والبَسْطَةِ وطُولِ الأعمارِ وسائرِ مَبادي التَّصرُّفاتِ، كما في قولِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦]، ولم يَكن النَّفيُ بلفظِ «ما» كراهةً لِتكريرِ اللَّفظِ، وإنِ اختلَفَ المَعْنى، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ لِيَسْتَعْمِلوها فِيما خُلِقَتْ لَهُ، وَيَعْرِفوا بِكُلٍّ مِنْها ما نِيطَت بِهِ مَعْرِفَتُهُ مِن فُنونِ النِّعَمِ، وَيَسْتَدِلَّ بها على شُؤونِ مُنْعِمِها ﷻ، وَيُداوِموا على شُكْرِهِ جَلَّ ثَناؤُه ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حَيثُ لم يَسْتَعْمِلوه في استِماعِ الوحيِ ومواعظِ الرُّسلِ، ﴿وَلَا أَبْصَارُهُمْ﴾ حَيثُ لم يَجتلوا بِها الآياتِ الكونيَّةَ المَرسُومةَ في صحائفِ الأعمالِ، ﴿وَلَا أَفْئِدَتُهُم﴾ حَيثُ لم يَسْتَعْمِلوها في معرفةِ اللهِ تعالى ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أيْ: شَيْئاً من الأشياءِ، و«مِن» مَزيدَةٌ للتَّوكيدِ، وقولهُ: ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تَعليلٌ للنَّفيِ، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ مِن العذابِ الذي كانوا يَستعجلونَهُ بطريقِ الاستهزاءِ، ويقُولونَ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

فَهذِه الآيةُ تُبطِلُ الاحتِجاجَ بقومٍ أُعطُوا مِن القُوَّةِ في الفهمِ والإدراكِ وفي القدرةِ والملكِ؛ ظَنّا أنَّ ذلكَ يَمْنَعُهُم منَ الضَّلالِ، ألا تَرى أنَّ قومَ عادٍ ـ لِما أخبرَ عنهم

التَّنزيلُ - كانوا مِنَ القُوَّةِ والبَسْطَةِ في الأموالِ والأبدانِ والإدْراكِ وسَعَةِ الأذْهانِ وغيرِ ذلك ما لم يَكن مِثْلُهُ لِلعربِ الذينَ أدركوا الإسلامَ، ومَعَ ذلكَ ضلُّوا عن سواءِ السَّبيلِ، وكَذَّبوا الرُّسُلَ بالأباطيلِ، فالتَّوفيقُ للإيمانِ باللهِ ورسلِه، والإذعانِ لِلْحَقِّ، وسُلوكِ سُبُلِهِ، إنَّما هو فَضْلٌ مِنَ اللهِ - تَعالى - لا لِكَثرةِ مالٍ ولا لِحُسْنِ حالٍ، وَمَنْ يُرِدِ الحَقَّ ويَسْتَدِلَّ بِكونِ مَن هو أحسنُ حالاً مِنهُ لم يقبلْهُ، ولم يُحَكِّم عقلَه، وَيَتَّبِعْ ما يوصِلُ إليه الدليلُ، فقد سَلَكَ سبيلَ الجاهِلِيَّةِ، وحادَ عن الحُجَّةِ المَرْضِيَّةِ.

ومِثْلُ هذه الآيةِ: قولُه تَعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

كانَ اليَهودُ يَعْلَمونَ مِن كُتُبِهِم رسالةَ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ اللهَ سَيُرْسِلُ نبيّاً كَريماً من العَرَبِ، وكانوا مِن قبلُ يَسْتَفْتِحونَ على المُشركينَ ببعثتِهِ، ويقولونَ: يا ربَّنا أرْسِلِ النَّبيَّ الموعودَ إرسالُهُ؛ حتَّى نَنتصرَ على الأعداءِ، فَلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا، وهو محمَّدٌ ﷺ، كَفَروا بِهِ؛ حَسَدًا منهم أنْ تكونَ النُّبُوَّةُ في العربِ، وهم - بزعمِهِم - أحسنُ أثاثاً ورِئْياً، ولم يَعْلموا أنَّ النُّبُوَّةَ والإيمانَ بها فضلٌ من اللهِ يُؤتيهِ من يَشاءُ.

ومِثْلُها - أيضاً - قولُه تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧].

الضَّميرُ في قولِه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ عائدٌ على العِلمِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، فَكِتمانُهُم الحَقَّ، وعَدَمُ جَرْيِهِم على مُقْتَضى عِلْمِهِم لِما فيهِم مِن الجاهِلِيَّةِ، والاعتقادِ أنَّ فضلَ اللهِ مقصورٌ عليهم، لا يَتَعَدَّاهم إلى غيرِهم.

وآيةُ «الأنعام» موافقةٌ لِهذِهِ الآيةِ لفظًا ومعنًى، وهي قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٩-٢٠].

العاشرة

الاستدلالُ بعطاءِ الدُّنيا على مَحَبَّةِ اللهِ تعالى.

قال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۞ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٩].

وقال في سورة «القصص» [٤٦-٥٠]: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي آياتٍ أُخرى في سورةِ «القصص» [٧٦-٧٨] يقولُ اللهُ سُبحانَه: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۞ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ إلى آخرِ الآيةِ.

فقدْ كفانا اللهُ تعالى إبطالَ هذهِ الخَصْلةِ الجاهِلِيَّةِ بقولِه في الآية الأولى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وفي الآيةِ الأخرى بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ، فَعَلِمْنا مِن ذلك أنَّ محبَّةَ اللهِ ورضى اللهِ إنَّما يكون بطاعتِهِ والانقيادِ لرسلِه، والإذعانِ للحقِّ باتِّباعِ البُرهانِ.

وأمَّا كثرةُ المالِ، وسَعَةُ الرِّزقِ، وعيشُ الرَّخاءِ، فلا دليلَ فيه على نجاةِ المُنْعَمِ عليه بِمثلِ ذلك، ولو كانتِ الدُّنيا وما فيها تُعادِلُ عند اللهِ جَناحَ بَعوضةٍ ما سَقى مَن عصاهُ شربةَ ماءٍ.

قالَ سُبحانَه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

وعلى ذلك قول القائل:

كمْ عالمٍ عالِمٍ أعْيَتْ مَذاهِبُهُ ... وجاهِلٍ جاهِلٍ تَلْقاهُ مَرْزوقا

ومما يُنْسَبُ لبَعضِ الأكابرِ:

رضينا قِسْمَةَ الجَبَّارِ فينا ... لَنا عِلْـمٌ وَلِـلأعْـداءِ مـالُ

فإنَّ المالَ يَفْنى عَنْ قريبٍ ... وَإنَّ العِلْـمَ بـاقٍ لا يَـزالُ

والشَّواهِدُ كثيرةٌ.

والمقصودُ أنَّ ما كانَ عليه أهلُ الجاهِلِيَّةِ مِنْ كونِ زَخارِفِ الدُّنيا مِن الأدلَّةِ على قُربِ مَن حازَها مِن اللهِ وقَبولِه عندَه، فقولٌ بعيدٌ عن الحقِّ، ومذهبٌ باطلٌ لا ينبغي لِمَنْ له بصيرةٌ أنْ يُعوِّلَ عَلَيْهِ.

***

الحادية عشرة

الاستِدلالُ على بُطلانِ الشَّيء باخذِ الضُّعَفاءِ بِهِ، وضَعفِ فَهمِ مَن اخَذَ به، على ما يَدُلُّ عليه قولُ قومِ نُوحٍ له كما حَكاه عنهم الكِتابُ الكريمُ.

قَالَ تَعالى في سورةِ «الشُّعراءِ» [١٠٥-١١٥]: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

فانظُرْ إلى قومِ نُوحٍ كَيفَ استَنكَفوا مِن اتِّباعِ نَبِيِّهِم لِسَبَبِ اتِّباعِ الضُّعفاءِ له، وَذلِكَ لِكونِ مَطمَحِ أنظارِهِم الدُّنيا، وإلا لو كانت الآخرةُ هَمَّهُمْ، لاتَّبعوا الحَقَّ أينَما وَجَدوهُ، ولكن لِجاهِلِيَّتِهِم أعرَضوا عَن الحَقِّ لاتِّباعِ شَهَواتِهِم.

وانظُرْ إلى هِرَقْلَ لَمّا كان من العَقْلِ والبَصيرةِ على جانبٍ عظيمٍ، اعتقدَ اتِّباعَ الضُّعفاءِ دليلاً على الحَقِّ، فقال في جُملةِ ما سألَ أبا سُفيانَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «وَسَألْتُكَ عن أشرافِ النّاسِ اتَّبعوه أم ضُعفاؤُهم، فَذَكَرْتَ أنَّ ضُعَفاءَهُمُ اتَّبعوه، وهم أتباعُ الرُّسُلِ»[1].

ومِثْلُ ذلكَ قوله تعالى في سُورةِ «هُودٍ» [٢٥-٢٧]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ الآيات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (بدء الوحي: ٧) واللفظ له، من غير لفظه: «عن». وبنحوه مسلم في (الجهاد: ٤٦٠٧).

الثانية عشرة

من خِصالِ أهلِ الجاهِلِيَّةِ: رميُ مَنِ اتَّبَعَ الحَقَّ بِعَدَمِ الإخلاصِ، وطَلَبِ الدُّنيا.

فَرَدَّ اللهُ عَلَيهم بقولِ نَبِيِّهِم الَّذِي حكاهُ اللهُ عن نوحٍ في الآيةِ الأولى المذكورةِ في المسألةِ الحاديةَ عشرةَ، بقولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٣].

ومقصودُهُم أنَّ أتباعَكَ فقراءُ، آمَنوا بِكَ؛ لِينالوا مقصدَهُمْ مِن العَيشِ، لا أنَّ إيمانَهم كان لِدَليلٍ يَقتَضي صِحَّةَ ما جئتَ بهِ؛ فَلِهذا رَدَّ عَلَيهِم بِما رَدَّ.

***

الثالثة عشرة

من خِصالِ أهلِ الجاهِلِيّةِ: الإعراضُ عَن الدُّخولِ في الحَقِّ الَّذي دَخَلَ فِيهِ الضعَفاءُ؛ تَكبُّرًا وَأنَفَةً.

فردَّ اللهُ تعالى عَلَيْهِم ذٰلِكَ بقولِهِ في سُورةِ «الأنعام» [٥٢-٥٣]: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾.

ومِثْلُ ذٰلكَ قوله تَعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۞ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس: ١-٢]، وغيرِ ذٰلِكَ.

وحاصلُ الرَّدِّ أنَّ مَن آمَنَ مِن هؤلاءِ الضُّعفاءِ، إنَّما كانَ إيمانُه عَن بُرهانٍ، لا كما زَعَمَ خُصومُهُم، وَلَسْتَ أنتَ بمسؤولٍ عنهم، ولا هم مسؤولون عن حِسابِك، فطردُهم عن بابِ الإيمانِ من الظُّلمِ بِمَكانٍ.

***

الرابعة عشرة

الاستدلالُ على بُطلانِ الشَّيء بِكَونِهم أوْلى بِهِ لَوْ كانَ حَقًّا.

قَالَ تَعالى في سورةِ «الأحقاف» [١١]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

بعدَ قولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

***

الخامسة عشرة

الاستِدلالُ بِالقِياسِ الفاسِدِ، وإنكارُ القِياسِ الصَّحيحِ، وجَهْلُهُمْ بِالجامعِ والفارِقِ.

قال تعالى في سورةِ «المؤمنين» [٢٤-٢٥]: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

ومَعْنى الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: شُروعٌ في بيانِ إهمالِ النّاسِ، وتركِهِم النَّظَرَ والاعتبارَ فيما عَدَّدَ سُبحانَه مِن النِّعَمِ قَبْلَ هذهِ الآيةِ، وما حاقَهُمْ مِن زَوالِها، وفي ذٰلِكَ تخويفٌ لِقريشٍ، وتقديمُ قِصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ على سائرِ القَصَصِ مِمَّا لا يَخفى وجهُهُ، فَقالَ مُتَعَطِّفاً عليهم، ومُسْتَميلاً لهُمْ إلى الحَقِّ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اعبُدوهُ وحدَه، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: استئنافٌ مَسوقٌ لِتعليلِ العبادةِ المأمورِ بِها، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: الهَمْزَةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِهِ، والفاءُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المَقامُ، أي: أتَعرِفونَ ذٰلكَ، أي: مَضمونَ قولِهِ تَعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فلا تتَّقونَ عَذابَهُ تعالى الَّذي يَسْتَوجِبُهُ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ مِن تَرْكِ عِبادتِهِ سبحانَه وحْدَه، وإشراكِكُم بِهِ عَزَّ وَجَلَّ في العبادةِ ما لا يَسْتَحِقُّ الوجودَ لَولا إيجادُ اللهِ إياه، فَضْلاً عن اسْتِحقاقِ العبادةِ، فالمُنْكَرُ عدمُ الاتِّقاءِ، مَعَ تَحقُّقِ ما يوجبُه، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾، أي: الأشرافُ الذينَ كَفَروا مِن قومِه، وُصِفَ الملأُ بالكُفرِ مَعَ اشْتِراكِ الكُلِّ فيه: للإيذانِ بِكمالِ عَراقَتِهِم وشِدَّةِ شَكيمَتِهِم فيهِ، وليسَ المُرادُ مِن ذلكَ إلاَّ ذَمَّهُم، دُونَ التَّمْيِيزِ عن أشرافِ آخرينَ آمَنوا بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أو لم يؤمِنْ بِهِ أحَدٌ مِن أشرافِهِم، كما يُفصِحُ عنه قولُه: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، وهذا القولُ صَدَرَ مِنْهُم لِعَوامِّهِم، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أي: في الجِنسِ والوصفِ، من غيرِ فرقٍ بَيْنَكم وبَيْنَه، وَصَفوهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذلِكَ مُبالَغَةً في وضعِ رُتْبَتِهِ العاليةِ، وحَطِّها عن مَنْصِبِ النُّبوَّةِ، ووَصَفوه بقولِه سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: إغْضابًا لِلْمُخاطَبين عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وإغراءً لهم على معاداتِه، والتَّفَضُّلُ: طَلَبُ الفَضْلِ، وهو كِنايَةٌ عنِ السِّيادَةِ، كأنَّه قِيلَ: يُريدُ أنْ يَسودَكُمْ

ويتقدَّمكُمْ بادِّعاءِ الرِّسالةِ، مَعَ كَوْنِهِ مِثْلَكُمْ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾: بيانٌ لِعَدَمِ رِسالةِ البَشَرِ عَلى الإطلاقِ على زَعْمِهِم الفاسِدِ، بَعْدَ تَحْقيقِ بَشَرِيَّتِهِ عليه السلام.

أيْ: وَلَو شَاءَ اللهُ تَعالى إرسالَ الرُّسُلِ، لأرْسَلَ رُسُلاً مِنَ المَلائكةِ، وإنَّما قيلَ: لأنْزَلَ؛ لأنَّ إرْسَالَ المَلائِكَةِ لا يكونُ إلا بطريقِ الإنزالِ، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، هَذَا إشارةٌ إلى الكلامِ المُتَضمِّنِ الأمرَ بعبادةِ اللهِ عز وجل، خاصَّةً والكَلامُ على تقديرِ مُضافٍ، أيْ: ما سَمِعنا بهذا الكلامِ في آبائِنا الماضينَ قَبْلَ بعثتِهِ عليه السلام، وقُدِّرَ المُضافُ؛ لأنَّ عدمَ السَّماعِ بِكلامِ نوحٍ المذكورِ لا يصلُحُ لِلرَّدِّ؛ فإنَّ السَّماعَ بِمِثْلِهِ كافٍ في القَبولِ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، أيْ: ما هو إلاَّ رَجُلٌ به جُنُونٌ أو جِنٌّ يخبُلونَهُ؛ ولِذلِكَ يَقولُ ما يَقولُ، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أيْ: فاحْتَمِلوهُ، واصْبِروا عليه، وانْتَظِروا، لَعَلَّهُ يَفيقُ مِمَّا هو فِيهِ: مَحْمولٌ على مَرامي أحْوالِهِمْ في المُكابَرَةِ والعِنادِ.

وإضرابُهُم عَمَّا وَصَفوه عليه السلام بِهِ مِنَ البَشَرِيَّةِ، وإرادةِ التَّفَضُّلِ، إلى وصفِهِ بما تَرَى، وهُم يَعْرِفونَ أنَّه عليه السلام أرجَحُ النَّاسِ عَقْلاً، وأرزَنُهُم قَوْلاً، وهو مَحمولٌ على تَناقُضِ مَقالاتِهِم الفاسِدَةِ-قاتَلَهم اللهُ تَعالى أنَّى يُؤفكونَ-.

والقياسُ الفاسدُ والصَّحيحُ، والجامعُ والفارِقُ، مُفَصَّلٌ في كتبِ الأصوليِّينَ.

فَبَيْنَ الرُّسلُ عليهم السلام وسائرِ النَّاسِ مُشابَهَةٌ مِن جهةِ البشريَّةِ ولوازِمِها الضَّروريَّةِ، فيَصِحُّ حينئذٍ قياسُ الرُّسُلِ على غيرِهِم فيها، وعليه قولُه تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

وبَيْنَ الرُّسُلِ والأنبياءِ عليهم السلام وغيرِهِم مِن البَشَرِ فُروقٌ كَثيرةٌ:

مِنها: أنَّ اللهَ تعالى اصْطفاهم على النَّاسِ برِسالاتِه وبكلامِهِ ووحْيِهِ، فَلا يُقاسُ أحَدٌ مِن النَّاسِ بِهِم حينئذٍ مِن هٰذِهِ الجِهَةِ، كَما لا يَصِحُّ قياسُ غيرِهِم بِهِم في سائِرِ خَصائِصِهِم التي فُصِّلَتْ في غيرِ هٰذَا المَوْضِعِ، فالجاهِلِيَّةُ لم يُمَيِّزوا بَيْنَ القِياسِ الصَّحيحِ والفاسِدِ، ولا عَرَفوا الجامِعَ ولا الفارِقَ، كما سَمِعْتَ مِن قِياسِهِم الرُّسُلَ على غَيرِهِم، وهَكَذا أتْباعُهُمُ اليومَ ومَن هو على شاكِلَتِهِمْ.

السادسة عشرة

الغُلُوُّ في الصَّالِحينَ مِن العُلَماءِ والأولِياءِ.

كقولِه تَعالى في سورة «التوبة» [٣٠-٣١]: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فاتِّخاذُ أحبارِ النَّاسِ أرْباباً يُحَلِّلونَ ويُحَرِّمونَ، ويَتَصَرَّفونَ فِي الكَونِ[١]، ويُنادَونَ في دَفعِ ضُرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ مِن جاهِلِيَّةِ الكِتابِيِّينَ، ثُمَّ سَرى إلى غيرِهِم من جاهِلِيَّةِ العَرَبِ، ولهمُ اليومَ بقايا في مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها، تصديقًا لِقولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ...» الحديث[٢]، حَتَّى نَرى غالبَ النَّاسِ اليومَ مُعْرِضينَ عن اللهِ، وعن دِينِه الَّذِي ارتَضاه، مُتَوَغِّلينَ في البِدَعِ، تائِهينَ في أودِيَةِ الضَّلالِ، مُعادينَ لِلْكِتابِ والسُّنَّةِ ومَن قامَ بِهِما، فأصْبَحَ الدِّينُ مِنهم في أنينٍ، والإسلامُ في بَلاءٍ مبينٍ، وحسبُنا اللهُ، ونِعْمَ الوَكيلُ.

***

(١) حسب ما يزعمون، ويأتي حديث عدي بن حاتم في هذا ص (٨٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (أحاديث الأنبياء/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل: ٣٤٥٦) - واللفظ له - ومسلم في (العلم: ٦٧٨١).

السابعة عشرة

اعْتِذارُهم عَنِ اتِّباعِ الوَحْيِ بِعَدَمِ الفَهْمِ.

قَالَ تَعالى في سورة «البَقَرَة» [٨٧-٨٨]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي سورةِ «النِّساءِ» [١٥٥]: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الغُلْفُ: جمعُ أغلَفَ، كَأَحْمَرَ وحُمْرٍ، وهو الذي لا يفقهُ، وأصلُه ذو القَلَفَةِ: الذي لم يُخْتَنْ، أو جَمْعُ غِلافٍ، ويُجمعُ على غُلُفٍ بِضمَّتَيْنِ أيضاً.

وأرادوا على الأوَّلِ: قُلوبُنا مُغَشّاةٌ بأغشيةٍ خَلْقِيَّةٍ مانِعَةٍ عن نُفوذِ ما جئتَ بِهِ فيها.

وهَذَا كقولِهِم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، قَصَدوا به إقناطَ النَّبِيِّ ﷺ عن الإجابةِ، وقَطْعَ طَمَعِهِ عنهم بالكُلِّيَّةِ.

ومِنهم مَن قالَ: معنى غُلْف: مُغَشّاةٌ بِعُلومٍ مِنَ التَّوراةِ تحفظُها أنْ يَصِلَ إليها ما تأتي به، أو بِسلامةٍ مِنَ الفِطْرَةِ كذلِكَ.

وعلى الثَّاني أنَّها أوعِيَةُ العِلْمِ، فَلَو كانَ ما تقولُهُ حقًّا وصِدقاً لَوَعَتْه.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ وقتادةُ والسُّدي: أو مملوءَةٌ عِلْماً، فَلا تَسَعُ بعدُ شيئاً، فَنحنُ مُسْتَغْنونَ بِما عِنْدَنا عَن غيرِه.

ومنهم مَن قالَ: أرادوا أنّها أوعِيةُ العِلْمِ؛ فكَيْفَ يَحِلُّ لنا اتّباعُ الأُمّيِّ[١]، ولا يخفى بُعْدُهُ[٢].

وَقالَ تعالى في سورةِ «هودٍ» [٨٩-٩١]: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۞ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۞ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

وهذه الآيةُ بمعنى الآيةِ الأولى، وقد كَذَّبَهُمُ اللهُ تعالى في دَعواهم هذِهِ في آياتٍ كثيرةٍ، وذَكَرَ أنَّ السَّبَبَ في عَدَمِ الفَهْمِ إنّما هو الطَّبْعُ على القُلوبِ بِكُفْرِهِم، لا القُصورُ في البيانِ والتَّفهيمِ.

وما أحسنَ قولَ القائلِ:

والنَّجمُ تَسْتَصْغِرُ الأبصارُ صورتَه والذَّنْبُ للطَّرْفِ لا لِلنَّجْمِ في الصِّغَرِ

***

(١) وهو عطية العوفي كما في تفسير ابن جرير (١/ ٤٠٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٧٢).
(٢) روح المعاني (١/ ٣١٩).

الثامنة عشرة

من خِصالِ الجاهلِيَّةِ: أنَّهم لا يَقْبَلونَ مِنَ الحَقِّ إلاَّ ما تَقولُ بِهِ طائِفَتُهُمْ.

قَالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وَمَعْنى ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ أيْ: نَسْتَمِرُّ عَلى الإيمانِ بالتَّوراةِ وما في حُكْمِها مِمَّا أُنزِلَ في تقريرِ حُكْمِها، ومرادُهم بضميرِ المُتَكَلِّمِ إمَّا أنبياءُ بَني إسرائيلَ - وهو الظَّاهرُ فيه - إيماءً إلى أنَّ عدمَ إيمانِهم بالقرآنِ كانَ بغيًا وحَسَداً على نُزولِهِ على مَن لَيسَ مِنهم، وإمَّا أنفُسُهُم، ومعنى الإنزالِ عليهم: تكليفُهُم بِما في المُنَزَّلِ مِن الأحكامِ.

وَذُمُّوا على هذِهِ المقالةِ؛ لِما فيها مِن التَّعريضِ بِشأنِ القرآنِ، ودَسائسُ اليهودِ مشهورةٌ، أو لأنَّهم تأوَّلوا الأمرَ المُطْلَقَ العامَّ، وَنَزَّلوه على خاصٍّ، هو الإيمانُ بما أُنزِلَ عَليهم، كَما هو دَيْدَنُهُم في تأويلِ الكِتابِ بغيرِ المرادِ مِنهُ.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أيْ: هُمْ مقارنونَ لِحقِّيَّتِهِ، أيْ: عالِمونَ بِها.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ لأنَّ كُتُبَ اللهِ يُصَدِّقُ بعضُها بَعضًا، فالتَّصديقُ لازِمٌ لا يَنْتَقِلُ، وقد قَرَّرَتْ مَضمونَ الخَبَرِ؛ لأنَّها كالاستدلالِ عليه؛ ولِهذا تَضَمَّنت رَدَّ قولِهِم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ حَيثُ إنَّ مَن لمْ يُصَدِّقْ بما وافَقَ التَّوراةَ، لم يُصَدِّقْ بِها.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ أنْ يقولَ ذلكَ تَبْكيتاً لهم، حيثُ قَتَلوا الأنبياءَ مَعَ ادِّعاءِ الإيمانِ بالتَّوراةِ، وهِيَ لا تُسَوِّغُه.

التاسعة عشرة

من خِصالِهِم: الاعتياضُ عن كِتابِ اللهِ تَعالى بكُتُبِ السِّحرِ

كَما قالَ تَعالى في سورةِ «البقرة» [١٠١-١٠٢]: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

والكلامُ على هذهِ الآيةِ في التَّفاسيرِ مشهورٌ.

وهذه الخَصلةُ الجاهِلِيَّةُ مَوجودةٌ اليومَ في كَثيرٍ من النَّاسِ، لا سِيَّما مَن انتسبَ إلى الصَّالِحينَ وهو عنهم بمراحِلَ، فيَتَعاطَى الأعمالَ السِّحريَّةَ مِن إمساكِ الحَيَّاتِ، وضَرْبِ السِّلاحِ، والدُّخولِ في النِّيرانِ، وغيرِ ذلك مِمَّا ورَدَتِ الشَّريعةُ بإبطالِهِ، فأعْرَضوا، ونبَذوا كتابَ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِم، واتَّبَعوا ما ألْقاهُ إليهِم شَياطينُهُم، وادَّعَوا أنَّ ذٰلِكَ مِنَ الكَراماتِ، مَعَ أنَّ الكَرامةَ لا تصدرُ عن فاسِقٍ، ومَن يَتَعاطى تلكَ الأعمالَ فِسقُهُم ظاهِرٌ لِلْعَيانِ، ولِذا اتَّخذوا دِينَهم لَعِبًا ولَهْوًا، وفي مِثْلِهِم قالَ تَعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤].

***

العشرون

تَناقُضُم في الانْتِسابِ.

فَيَنْتَسِبونَ إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وإلى الإسلامِ، مَعَ إظْهارِهِمْ تَرْكَ ذلكَ، والانتسابَ إلى غيرِه.

***

الحادية والعشرون

تَحْرِيفُ كلامِ اللهِ مِن بعدِ ما عَقَلوهُ وهُمْ يَعْلَمونَ.

ولَكَمْ في هذا العَصْرِ مَنْ هو على شاكِلَتِهِمْ، تَراه يَصْرِفُ النُّصوصَ، وَيُؤَوِّلُها إلى ما يَشْتَهيهِ مِن الأهْواءِ.

***

الثانية والعشرون

تَحْرِيفُ العُلماءِ لِكُتُبِ الدِّين.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۞ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨-٧٩].

وَمَن نَظَرَ إلى قُضاةِ هذا الزَّمانِ وما تَلاعَبوا بِهِ مِن الأحكامِ، وصَرْفِ النُّصوصِ إلى ما تَهواهُ أنفُسُهم، وتبديلِ الحَقِّ وإبطالِهِ، بِما يَنالونَه من الرِّشا وغيرِ ذلكَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ اليومَ، تبيَّنَ لَهُم من ذلك بحرٌ لا ساحلَ لَهُ.

وَهٰكَذا بعضُ المُبتَدِعَةِ وغلاةُ القُبورِ، وقد بُيِّنَ حالُهُم في غيرِ هذا الموضِعِ.

***

الثالثة والعشرون

وهي من أعجَبِ المسائلِ والخصالِ: مُعاداةُ الدِّين الذي انْتَسَبوا إليهِ أشَدَّ العداوةِ، ومُوالاتُهم لِمَذْهَبِ الكُفَّارِ الذينَ فارَقوهُم أكْمَلَ الموالاة.

كما فَعَلوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لمَّا أتاهُمْ بِدينِ موسى، واتَّبَعوا كُتُبَ السِّحْرِ، وَهو مِن دِينِ آلِ فرعونَ.

ومِثْلُ هَؤلاءِ في الأمَّةِ الإسلامِيَّةِ كثيرٌ، هَجَروا السُّنَّةَ، وعادَوْها، ونَصَروا أقوالَ الفَلاسِفَةِ وأحْكامَهُمْ.

***

الرابعة والعشرون

أنَّهُم لَمَّا افْتَرقوا - وَكُلُّ طائِفَةٍ لا تَقْبَلُ مِنَ الحَقِّ إلاَّ ما قالَتْهُ طائفتُهُم - كَفَروا[١] بِما مَعَ غيرِهِم مِنَ الحَقِّ.

قالَ تَعالى في «سورة البَقَرَة» [١١٣]: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ولا شَكَّ أنَّ هٰذِهِ مِنَ الخِصالِ الجاهِلِيَّةِ، وَعَلَيْهِ اليومَ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، لا يَعْتَقِدُ الحَقَّ إلاَّ مَعَهُ، لا سِيَّما أربابُ المذاهِبِ، يَرى كلُّ أهلِ مَذْهَبٍ أنَّ الدِّينَ مَعَه لا يَعْدوهُ إلى غيرِه، و ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

وكُـلٌّ يَدَّعِـي وَصْـلاً لِلَيْـلى ... وَلَيْـلى لا تُقِـرُّ لَهُـمْ بِذاكـا[٢]

والحَزْمُ أنْ يُنْظَرَ إلى الدَّليلِ، فما قامَ عليه الدَّليلُ، فهو الحَقُّ الحَريُّ أن يُتَلَقَّى بالقَبولِ، وما لَيْسَ عَلَيْهِ بُرْهانٌ ولا حُجَّةٌ يُنْبَذُ وَراءَ الظُّهورِ، وكلُّ أحَدٍ يُؤخذ من قَولِهِ ويُرَدُّ إلاَّ مَنِ اصْطفاه اللهُ لِرِسالَتِهِ.

***

---

(١) في الأصل: «وكفروا» ولعل الصواب ما أثبته.

(٢) لا أرى الاستشهاد بمثل هذه الأبيات، خصوصًا في الكتب الشرعية، ففي ترتيب القاموس المحيط (ص ٦٢٠) ج ٤، مادة: «وصل»: ووَصَلَهُ وَصْلاً وَصِلَةً. وَواصَلَهُ مواصَلَةً ووِصالاً: كِلاهما يكون في عَفافِ الحبِّ ودعارته إ. هـ.

الخامسة والعشرون

أنهم لَمَّا سَمِعوا قولَه ﷺ في حَديثِ الافْتِراقِ: «وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إلى ثَلاثٍ وَسَبْعينَ فِرْقَةً، كُلُّها في النَّارِ إلاَّ واحِدَةً»؛ ادَّعى كُلُّ فِرْقَةٍ أنها هِي النَّاجِيَةُ.

كما حَكى اللهُ عَن اليهودِ والنَّصارى في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

مَعَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَيَّنَ في آخِرِ الحَديثِ المُرادَ مِنَ الفرْقَةِ النَّاجِيَةِ، فقالَ: «وَهُمْ ما كُنْتُ أنا عَلَيه وَأَصْحابِي» أو كما قالَ[1].

وَرَدَّ اللهُ تَعالى عليهم بقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

والمَقصودُ أنَّهم لَيْسَ لَهم بُرهانٌ على هذهِ الدَّعْوى، بَلِ الدَّليلُ على خِلافِ ذلِكَ.

وَأَبو العَبَّاس تَقِيُّ الدِّينِ تَكَلَّمَ على حَديثِ الفِرَقِ في كِتابِهِ «مِنهاج السُّنَّةِ» بِما لا مَزيدَ عَلَيه، حَيثُ اسْتَدَلَّ بِهِ الرَّافِضِيُّ على حقية[2] مَذهبِهِ وبُطلانِ مَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ، فراجِعْهُ إنْ أرَدْتَهُ[3].

* * *

(١) رواه بلفظ: «ما أنا عليه وأصحابي» الترمذي في جامعه (كتاب الإيمان/ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة: ٢٦٤١) ـ وهو حديث حسن ـ وغيره في غيره.

(٢) في الأصل: حقيقة، ولعل الصواب ما أثبته.

(٣) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٤٣-٥٠٦).

السادسة والعشرون

أنهم أنكروا ما أقرّوا أنه مِن دِينِهِم.

كَما فَعَلوا في حَجِّ البَيتِ، فتَعَبَّدوا بإنكارِهِ والبراءةِ منه مَعَ ذلكَ الإقرار.

كَما قالَ تَعالى في سورةِ «البَقَرةِ» [١٢٥]: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ إلى أنْ قالَ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

يُقالُ: إنَّ سَبَبَ نُزولِ قولِه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ...﴾ إلخ ما رُوِيَ أنَّ عبدَاللهِ بنَ سَلَام دَعا ابْنَي أخيهِ: سَلَمَةَ ومهاجِراً إلى الإسلام، فقالَ: قَد عَلِمْتُما أنَّ اللهَ تَعالى قالَ في التَّوراةِ: إنِّي باعِثٌ مِن ولدِ إسماعيلَ نَبِيًّا اسْمُهُ أحمدُ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ، فَقَد اهْتَدى وَرَشَدَ، وَمَنْ لَم يُؤمِنْ بِهِ، فهو مَلْعونٌ. فَأَسْلَمَ سَلَمَةُ، وأَبى مُهاجِرٌ، فَنَزَلَتْ[١]، انتهى[٢].

***

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٤٧) ونسبه لمقاتل.

(٢) من أدلة هذه المسألة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣]. قال ابن عباس: إنَّ كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أن يكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى عليه السلام، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى عليه السلام، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه. إ.هـ. ذكره ابن كثير في «تفسيره». وهذا من تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم، وهو من مسائل الجاهلية.

السابعة والعشرون

التَّعَبُّدُ بِكَشْفِ العَوْراتِ.

قال تعالى في سورة «الأعراف» [٢٨-٢٩]: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾.

قالَ بَعضُ المُفَسِّرينَ: الفاحِشةُ هُنا: الفَعْلَةُ القَبيحةُ المُتناهِيةُ في القُبحِ، والتاءُ إمّا لأنّها مُجراةٌ على المَوصوفِ المؤنّثِ؛ أيْ: فَعلةٌ فاحِشةٌ، وإمّا لِلنَّقلِ مِنَ الوَصفيَّةِ إلى الاسْمِيَّةِ، والمُرادُ بها هُنا: عِبادةُ الأصنامِ، وكشفُ العورةِ في الطَّوافِ، ونَحوُ ذلِكَ.

وعَنِ الفَرّاءِ تَخصِيصُها بِكشفِ العَورةِ.

وفي الآيةِ حَذفٌ، أيْ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ فَنُهوا عَنها ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾، مُحتَجِّينَ بِأمْرَيْنِ: بِتَقليدِ الآباءِ، والافتراءِ على اللهِ.

وكان مِن سُنَّةِ الحُمْسِ[1] أنّهم لا يَخرُجونَ أيّامَ المَواسِمِ إلى عَرَفاتٍ، إنّما يَقِفونَ بِالمُزْدَلِفَةِ، وكانوا لا يَسلأون، وَلا يَأقِطونَ، ولا يَرْتَبِطونَ عَنْزًا ولا بَقَرَةً، ولا يَغزِلونَ صوفًا ولا وَبَرًا، ولا يَدخُلونَ بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ والمَدَرِ، وإنّما يَكْتَنُّونَ بِالقِبابِ الحُمْرِ في الأشْهُرِ الحُرُمِ، ثُمَّ فَرَضوا على العَرَبِ قاطِبةً أنْ يَطْرَحوا أزْوادَ الحِلِّ إذا دَخَلوا الحَرَمَ، وأنْ يَترُكوا ثِيابَ الحِلِّ، ويَستَبدِلوها بِثيابِ الحَرَمِ، إمّا اشْتِراءً وإمّا عارِيَةً وإمّا هِبَةً، فإنْ وَجَدوا ذلكَ فيها وإلا طافوا بالبيتِ عَرايا.

(١) الحُمْسُ: قريش وما ولدت، ومن دان بدينها، وقد سموا كذلك من باب أنهم تحمسوا في دينهم، وهو الشدة في الدين والصلابة.

وَفَرَضوا على نِساءِ العربِ مثلَ ذلكَ، غيرَ أنَّ المرأةَ كانت تَطوفُ في درج مُفَرَّجِ القَوائمِ والمَواخيرِ.

قالتِ امرأةٌ وهي تطوفُ بالبيتِ:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ ... ومَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ
أخْتَمَ مِثْلَ القِعْبِ بَادٍ ظِلُّهُ ... كَأنَّ حُمَّى خَيْبَرٍ تَمُلُّهُ

وكَلَّفوا العربَ أن يُفِيضوا مِن مُزْدَلِفَةَ، وقدكانوا يُفيضون مِن عَرَفَةَ، إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الأمورِ الَّتي ابْتَدَعوها وَشَرَعوها، مِمَّا لم يأذنْ بِهِ اللهُ.

ومَعَ ذلِكَ كانوا يَدَّعونَ أنَّهم على شَريعةِ أبيهم إبراهيم عليه السلام وما ذلكَ إلا لِجاهِلِيَّتِهِم.

وغالبُ مَن يَنْتَمي إلى الإسلامِ اليومَ ابْتَدَعوا في الدِّينِ ما لم يأذَنْ بِهِ اللهُ، فَمِنْهم مَنِ اتَّخَذَ ضَرْبَ المعازِفِ وآلاتِ اللهوِ عِبادةً يَتَعَبَّدونَ بِها في بُيوتِ اللهِ ومَساجِدِهِ، ومِنهم مَن اتَّخَذَ الطَّوافَ على القُبورِ والقصد إليها والنُّذورَ أخلَصَ عِبادَتِهِ وأفْضَلَ قُرُباتِهِ، ومِنهم مَنِ ابْتَدَعَ الرَّهْبانِيَّةَ والحِيَلَ الشَّيْطانِيَّةَ، وَزَعَمَ أنَّهُ سَلَكَ سَبيلَ الزُّهَّادِ وطريقَ العُبَّادِ، ومَقْصِدُه الأعلى نَيْلُ شَهَواتِهِ الحَيْوانِيَّةِ، والفَوزُ بِهٰذِهِ الدُّنيا الدَّنِيَّةِ، إلَى غيرِ ذلك مِمَّا يَطولُ، ولا يعلمُ ماذا يقولُ.

إلى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضي ... وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخُصُومُ[١]

***

(١) هذا البيت لأبي العتاهية كما في ديوانه (ص ٢٠٩). ط ١٤١٩هـ: دار الكتب العلمية.

الثامنة والعشرون

التَّعَبُّدُ بِتَحْرِيمِ الحَلالِ.

فَرَدَّ اللهُ تعالى ذٰلِكَ عَليهم بِقولِهِ في سورة «الأعرافِ» [٣١-٣٣]: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وَمَعْنى الآياتِ: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، أيْ: ثِيابَكُم لِموارَاةِ عَوْراتِكُم عِندَ طوافٍ أوْ صَلاةٍ.

وسَبَبُ النُّزولِ: أنَّه كانَ أُناسٌ مِن الأعرابِ يَطوفونَ بِالبيتِ عُراةً، حَتَّى إنْ كانتِ المَرْأةُ لَتَطوفُ بِالبيتِ وهِيَ عُريانةٌ، فَتُعَلِّقُ على سُفْلِها سُيوراً مِثْلَ هٰذهِ السُّيورِ التي تكونُ على وجْهِ الحُمُرِ من الذُّبابِ، وهي تَقولُ:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهْ

فَأنْزَلَ اللهُ تَعالى هٰذهِ الآيةَ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مِمَّا طابَ لَكُمْ[١].

قال الكَلْبِيُّ: كان أهلُ الجاهِلِيَّةِ لا يَأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ إلا قُوتاً، ولا يأكلونَ دَسَماً في أيَّامِ حَجِّهِم، يُعَظِّمونَ بِذٰلِكَ حَجَّهم، فقالَ المُسلِمونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحنُ أحَقُّ بِذٰلِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعالى الآيةَ.

وَفيْهِ يَظْهَرُ وجهُ ذِكْرِ الأكْلِ والشُّرْبِ هُنا.

---

(١) روى مسلم في (التفسير: ٧٥٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت المرأة تطوفُ بالبيت وهي عُريَانةٌ، فتقول: مَن يُعيرُني تِطوافاً؟ تجعلُه على فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

(وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ) بِتَحْرِيمِ الحَلالِ، كَما هو المُناسِبُ لِسَبَبِ النُّزولِ.

(إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ) بَلْ يُبْغِضُهُمْ، وَلاَ يَرْضى أفْعالَهُمْ.

(قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ) مِنَ الثِّيابِ وكُلِّ ما يُتَجَمَّلُ بِهِ، وخَلَقَها لِنَفْعِهِمْ مِنَ الثِّيابِ كالقُطْنِ والكِتّانِ والحَيوانِ كالحَريرِ والصُّوفِ.

(وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ)، أيْ: المُسْتَلَذَّاتِ، وقيلَ: المُحَلَّلاتِ مِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ كَلَحْمِ الشّاةِ وَشَحْمِها ولَبَنِها.

(قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)، أيْ: هي لَهُم بالأصالَةِ؛ لِمَزيدِ كَرَمِهِمْ على اللهِ تعالى والكَفَرَةُ - وإنْ شاركوهُم فيها - فبِالتَّبَعِ، فَلاَ إشْكالَ في الاخْتِصاصِ.

(خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ) أيْ: لا يُشارِكُهم فيها غَيْرُهُم.

(كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ)، أيْ: مِثْلَ تَفْصيلِنا هذا الحُكْمَ، نُفَصِّلُ سائِرَ الأحكامِ لِمَنْ يَعْلَمُ ما في تَضامينِها مِنَ المَعاني الرّائِقَةِ.

(قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ)، أيْ: ما تَزايَدَ قُبْحُهُ مِنَ المَعاصي، ومِنهُ ما يَتَعَلَّقُ بِالفُروجِ.

(مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ): بَدَلٌ مِنَ الفَواحِشِ، أيْ: جَهْرَها وَسِرَّها.

وعَنِ البَعْضِ: (مَا ظَهَرَ) الزِّنى عَلانِيةً، (وَمَا بَطَنَ) الزِّنى سِرّاً[١]، وَكانوا يَكْرَهونَ الأوَّلَ، ويَفْعَلونَ الثّانيَ، فَنُهوا عَن ذٰلِكَ مُطْلَقاً.

وعن مُجاهِدٍ: (مَا ظَهَرَ) التَّعَرّي في الطَّوافِ، (وَمَا بَطَنَ) الزِّنى.

والبَعْضُ يَقولُ: الأوَّلُ: طَوافُ الرِّجالِ بالنَّهارِ، والثّاني: طوافُ النِّساءِ بالليلِ عارِياتٍ.

(وَٱلۡإِثۡمَ)، أيْ: ما يُوجِبُ الإثمَ، وأصْلُه الذَّمُّ، ثُمَّ أُطْلِقَ على ما يُوجِبُه مِنَ مُطْلَقِ الذَّنْبِ، وَذُكِرَ لِلتَّعْميمِ بَعْدَ التَّخْصيصِ بِناءً على ما تَقَدَّمَ مِن مَعْنى الفَواحِشِ.

(١) وهذا أحد أقوال ابن عباس في الآية، وبه قال سعيد بن جبير، كما في زاد المسير (٣/ ٣٤).

ومِنهم مَن قالَ: إنَّ الإثمَ هو الخَمْرُ، وَعَلَيْهِ أهلُ اللغَةِ[١]، وَأنْشَدوا لَه قَولَ الشَّاعِرِ:

نَهـانـا رَسُـولُ اللهِ أنْ نَقْـرَبَ الـزِّنـى ... وَأنْ نَشْرَبَ الإثْمَ الذي يوجِبُ الوِزْرا

وَقَولَ الآخَرِ:

شَـرِبْـتُ الإثْـمَ حَتّـى ضَـلَّ عَقْلِـي ... كَـذٰلِـكَ الإثْـمُ يَـذْهَـبُ بِـالعُقُـولِ

***

التاسعة والعشرون

الإلْحادُ في أسْمائِهِ وصِفاتِهِ.

قالَ سُبحانَه في سورة «الأعراف» [١٨٠]: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

تَفسيرُ هٰذِهِ الآيَةِ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: تَنْبيهٌ للمُؤمِنينَ على كَيْفِيَّةِ ذِكْرِهِ تَعالى، وَكَيْفِيَّةِ المُعامَلَةِ مَعَ المُخِلِّينَ بِذٰلِكَ الغافِلينَ عَنه سُبحانَه، وَعَمَّا يَليقُ بِشأنِه، إثْرَ بَيانِ غَفْلَتِهِمُ التَّامَّةِ، وَضَلالَتِهِمُ الطَّامَّةِ.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾: إمَّا مِنَ الدَّعْوَةِ بِمعْنى التَّسْمِيَةِ، كَقَولِهِم: دَعَوتُهُ زَيْدًا، أوْ بِزَيدٍ، أيْ: سَمَّيْتُهُ، أو الدُّعاءِ بِمعْنى النِّداءِ، كَقَولِهِم: دَعَوتُ زيدًا، أيْ: نادَيْتُهُ.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أيْ: يَميلونَ وَيَنْحَرِفون فيها عَنِ الحَقِّ إلى الباطِلِ، يُقالُ: ألْحَدَ، إذا مالَ عَنِ القَصْدِ والاستِقامَةِ، ومِنه: لَحْدُ القَبْرِ؛ لِكَوْنِهِ في جانِبِهِ بِخلافِ الضَّريحِ، فإنَّهُ في وَسَطِهِ.

والإلحادُ في أسمائِهِ سبحانَه أنْ يُسَمَّى بِلا تَوْقيفٍ فيه، أوْ بِما يُوهِمُ مَعنًى فاسِداً، كما في قولِ أهلِ البَدْوِ: يا أبا المَكارِمِ، يا أبيضَ الوجْهِ، يا سَخِيُّ، ونحو ذٰلك، فالمُرادُ بِتَرْكِ المأمورِ بِهِ الاجتنابُ عن ذٰلك، وبِأسمائِهِ ما أطْلَقوهُ عَلَيه تَعالى وَسَمَّوهُ به على زَعْمِهِم، لا أسماؤُه تعالى حَقيقَةً، وعلى ذٰلك يُحْمَلُ تَرْكُ الإضمارِ، بأنْ

(١) أنكر بعض أهل اللغة أن يكون الإثم من أسماء الخمر، انظر: اللسان «أثم»، وتاج العروس «أثم».

يُقالَ: يُلحِدون بها[١].

وَقَالَ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وهذِهِ الآيةُ في سورةِ «الرَّعْدِ».

عن قَتادَةَ وابنِ جُرَيْجٍ ومُقاتِلٍ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في مُشْرِكي مَكَّةَ لَمَّا رأَوا كِتابَ الصُّلْحِ يومَ الحُدَيْبِيَةِ وقد كَتَبَ فيه عَليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ»، فَقالَ سُهيلُ بنُ عَمْرٍو: ما نَعْرِفُ الرَّحْمٰنَ إلا مُسَيْلَمَةَ.

ومِنهم مَن قال: سَمِعَ أبو جَهْلٍ قَولَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «يَا اللهُ يا رحمٰنُ»، فقال: إنَّ محمَّدًا يَنهانا عَن عبادةِ الآلهةِ وهو يَدعو إلٰهينِ، فَنَزَلَتْ[٢].

وَعَن بعضِهِم أنَّه لَمَّا قِيلَ لِكُفَّارِ قُريشٍ: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ فَنَزَلَتْ[٣].

وقيلَ غَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَطولُ.

وَقَالَ تَعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢١-٢٣].

وهٰذِهِ الآيةُ إخبارٌ أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ كانوا يُلْحِدونَ في صِفاتِهِ، كما كانوا يُلحِدونَ في أسمائِه تَعالى.

---

(١) ومن ذلك قول بعضهم: يا أبا غيمة زرقاء، يا ساتر، يا ستار، يا معين، يا مجير، يا هو، يا موجود في كل وجود ـ وهذا كفر أكبر نسأل الله العافية، ومثلها في الكفر: يا من لا هو إلا هو ـ وعلة الوجود، والعلة الأولى، والذات الإلهية.

(٢) ذكر هذا الأثر البغوي في تفسيره (٣/ ١٩)، وابن الجوزي في تفسيره (٤/ ٣٢٩).

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ١٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٢٧٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٩)، ونسبوه لابن عباس.

أخرجَ أحمدُ والبُخاريُّ ومُسلِمٌ والتِّرمذيُّ والنَّسائِيُّ وجَماعةٌ عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: «كُنتُ مُستَتِراً بِأستارِ الكعبةِ، فجاءَ ثلاثةُ نَفَرٍ: قُرَشيٌّ وثَقَفيَّانِ، أو ثَقَفِيٌّ وقُرَشيانِ، كثيرٌ لحمُ بُطونِهِم، قليلٌ فِقهُ قُلوبِهِم، فتكلَّموا بكلامٍ لمْ أسْمَعْهُ، فقال أحَدُهُم: أتَرَونَ اللهَ يَسمعُ كلامَنا هذا؟ فقالَ الآخَرُ: إذا رفَعْنا أصواتَنا يَسْمَعُهُ، وإذا لم نَرْفَعْ لم يَسْمَعْ، فقال الآخَرُ: إنْ سَمِعَ منه شيئًا سَمِعَهُ كُلَّهُ. قال: فَذَكَرْتُ ذلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فأنزَلَ اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ . . .﴾ إلى قولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»[١].

فهذا هو الإلحادُ في الصِّفاتِ.

وأنتَ تَعلَمُ أنَّ ما عَلَيْهِ أكثرُ المُتكلِّمينَ المُسلِمينَ مِنَ الإلحادِ في الأسماءِ والصِّفاتِ فَوْقَ ما كانَ عَلَيه أهلُ الجاهِلِيَّةِ، فَسَمَّوا اللهَ بأسماءٍ ما أنزلَ اللهُ بها مِن سُلطانٍ، ومِنهم مَن قالَ: لَيسَ لِلَّهِ صِفاتٌ قامتْ بِهِ، ومِنهم مَن قالَ: صِفاتُه لَيسَتْ عَيْنَ ذاتِهِ ولا غَيرَهُ، ومِنهم مَن قالَ: إنَّ صفاتِه غيرُهُ، ومِنهم مَن قالَ: إنَّ اللهَ لم يَتكلَّمْ بالكُتُبِ التي أنزَلَها، وَأثبَتوا لَه الكَلامَ النَّفسيَّ، وأنَّه لم يُكلِّمْ أحدًا مِن رُسُلِهِ، إلى غيرِ ذلك من الإلحادِ الذي حَشَوا به كُتُبَهُمْ، وملأوها مِن الهَذَيانِ، وظَنُّوا أنَّ الآيةَ مُختَصَّةٌ بِأهلِ الجاهِلِيَّةِ، وَمَا دَرَوا أنَّهُمُ الفَرْدُ الكامِلُ لعُمومِها[٢].

ومَن بَصَّرَه اللهُ تَعالى وَنَوَّرَ قَلْبَه، أعْرَضَ عَن أخذِ عَقائِدِهِ مِن كُتُبِ هؤلاءِ الطوائفِ، وتَلَقَّى مَعْرِفَةَ إلٰهِهِ مِن كُتُبِ السَّلَفِ المُشْتَمِلَةِ على نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٨١-٤٠٨-٤٢٦-٤٤٢-٤٤٣)، والبخاري بنحوه في (التفسير/ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: ٤٨١٧) وفي (التوحيد/ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾: ٧٥٢١)، ومسلم بنحوه في (صفات المنافقين وأحكامهم: ٧٠٢٩)، والترمذي بنحوه برقم (٣٢٤٨ و٣٢٤٩)، والنسائي في السنن الكبرى (كتاب التفسير/ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾: ١١٤٦٨) (٦/ ٤٥١).

(٢) وقد قال بعض هؤلاء الملاحدة: إن الله في الكون كالزبدة في الحليب يعني (مبعثر) تعالى الله عن ذلك، وقالوا لوالدي - حفظه الله - يوماً وقد كان معهم: أترى هذا الكلب، فقال: نعم، قالوا: فيه جزء من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وأين هم من عقيدة الأنبياء والمؤمنين في علو الرحمن فوق عرشه فوق سماواته، وأنه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، لاحول ولا قوة إلا بالله.

الثـلاثـون

نسبَةُ النَّقائصِ إليه سُبحانَه كالولَدِ والحاجَةِ.

فإنَّ النَّصارى قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وطائفةٌ مِن العَرَبِ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وقومٌ مِن الفَلاسِفَةِ قالوا بتَوليدِ العُقولِ، وقومٌ مِن اليَهودِ قالوا: العُزَيْرُ ابنُ اللهِ(١)، إلى غيرِ ذٰلِكَ.

وقد نزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن كُلِّ ذٰلِكَ ونَفاه: بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وبقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

وهذا يَعُمُّ جميعَ الأنواعِ التي تُذْكَرُ في هذا البابِ عن بعضِ الأُمَمِ، كما أنَّ ما نفاه من اتِّخاذِ الوَلَدِ يَعُمُّ ـ أيضاً ـ جميعَ أنواعِ الاتِّخاذاتِ، لا اصطفاؤُه.

كما قال تَعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

قالَ السُّدِّيُّ: قالوا: إنَّ اللهَ تَعالى أوْحى إلى إسرائيلَ: إنَّ وَلَدَكَ بِكْرِي مِنَ الوَلَدِ، فَأُدْخِلُهُمُ النَّارَ، فَيَكونونَ فيها أربعينَ يوماً حَتَّى تُطَهِّرَهم وتأكلَ خطاياهم، ثم ينادي منادٍ: أخرِجوا كلَّ مَخْتونٍ مِن بني إسرائيل.

(١) هذا قولهم كلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقد قال الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ١-٢].

﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ * وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥١-٥٧].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا * أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٩-٤٣].

وقال: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٦٣].

وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ * إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٧].

وقالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

قال بعضُ المفسِّرينَ: ﴿جُزْءًا﴾، أيْ: نَصيبًا وبعضًا.

وقال بعضُهم: جعلوا لِلَّهِ نصيبًا من الولدِ.

وعن قَتادةَ ومقاتلٍ: عدلاً.

وكلا القولَين صحيحٌ، فإنَّهم يَجْعَلون له وَلَداً، والولَدُ يُشْبِهُ أباهُ.

ولهذا قالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ [الزخرف: ١٧]، أيْ: البَناتِ.

كما قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨].

فَقَد جَعَلوها لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً، وَجَعَلوا لَهُ مِن عِبادِهِ جُزْءاً، فإنَّ الولدَ جُزْءٌ مِنَ الوالِدِ، قالَ ﷺ: «إنَّما فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي»[1].

وقولُهُ في «الأنعام» [١٠٠]: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قالَ الكَلْبِيُّ: «نَزَلَتْ في الزَّنادِقَةِ، قالوا: إنَّ اللهَ وإبليسَ شَريكانِ، فاللهُ خالقُ النُّورِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ، وإبليسُ خالقُ الظُّلْمَةِ والسِّباعِ والحَيَّاتِ والعَقارِبِ».

وَأمَّا قولُه: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾:

فَقيلَ: هو قولُهُم: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وسُمِّيَ الملائكةُ جِنّاً؛ لاخْتِفائِهم عَنِ الأبصارِ، وهو قولُ مُجاهِدٍ وقَتادةَ.

---

(١) رواه مسلم في (فضائل الصحابة: ٦٣٠٨)، وله تتمة: «يؤذيني ما آذاها».

وقيلَ: قالوا لِحَيٍّ مِن الملائكةِ يُقالُ لَهُمُ: الجنُّ، ومنهم إبليسُ: هم بناتُ اللهِ[(١)].

وَقَالَ الكَلْبِيُّ: قالوا ـ لَعَنَهمُ اللهُ ـ بَلْ بُذورٌ يَخْرُجُ مِنها الملائكةُ.

وقولهُ: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

قالَ بعضُ المفسِّرينَ: هُم كُفَّارُ العَرَبِ، قالوا: الملائكةُ والأصنامُ بَناتُ اللهِ، واليَهودُ قالوا: عُزيرٌ ابنُ اللهِ، والذين كانوا يقولونَ مِن العَرَبِ: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وَمَا نُقِلَ عَنهم مِن أنَّه صاهَرَ الجِنَّ، فوَلَدَتْ له الملائكةَ، فَقَدْ نَفاه عنه بامْتِناعِ الصَّاحِبَةِ، وبامتناعِ أنْ يكونَ منه جُزءٌ، فإنَّه صَمَدٌ.

وقولُه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾، وَهٰذَا لأنَّ الولادةَ لا تكونُ إلا مِن أصْلَينِ، سَواءٌ في ذٰلِكَ تولُّدُ الأعيانِ ـ وتُسمَّى الجواهِرَ ـ وتَولُّدُ الأعراض[(٢)] والصِّفاتِ، بَلْ وَلاَ يَكونُ تولُّدُ الأعْيانِ إلا بانفصالِ جُزْءٍ مِن الوالِدِ، فإذا امتَنعَ أنْ تكونَ لَه صاحِبةٌ، امْتَنعَ أنْ يَكونَ لَه وَلَدٌ، وقد عَلِموا كُلُّهُم أنْ لا صاحِبةَ له، لا مِن الملائكةِ، ولا مِن الجِنِّ، ولا مِنَ الإنْسِ، فلم يَقُلْ أحَدٌ مِنْهُم: إنَّ له صاحِبةً؛ فَلِهذا احْتَجَّ بِذٰلِكَ عَلَيهم، وما حُكِيَ عَن بعضِ كُفَّارِ العَرَبِ أنَّهُ صاهَرَ الجِنَّ، فهذا فيه نَظَرٌ، وذلكَ إنْ كانَ قَدْ قيلَ، فهوَ مِمَّا يُعْلَمُ انْتِفاؤهُ مِن وُجوهٍ كَثيرةٍ، وكذلك ما قالَتْهُ النَّصارى مِن أنَّ المَسيحَ ابنُ اللهِ، وما قالَه طائفةٌ مِنَ اليهودِ أنَّ العُزَيْرَ ابنُ اللهِ، فإنَّه قد نَفاه سُبحانه بِهذا وَهذا.

وتَمامُ الكَلامِ في هذا المَقامِ في كتابِ «الجَوابِ الصَّحيحِ لِمَنْ بَدَّلَ دِيْنَ المَسيحِ»[(٣)]، و «تَفْسير سورةِ الإخلاص»[(٤)] وَغَيرِهِما مِن كُتُبِ شَيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ قدس الله روحه.

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٤/ ٤٤) ونسبه لابن عباس، لكن الحق أن إبليس لم يكن من الملائكة، بل إبليس ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

(٢) الجواهر والأعراض من مصطلحات وكلام المتفلسفة، فليته أعرض عنها، واستعمل بدلاً منها الألفاظ الشرعية.

(٣) (٣/ ٢٠٢ - ٢١٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٦٨ - ٢٧٦).

الحادية والثلاثون

تَنْزِيهُ المَخْلوقِ عمَّا نَسَبوه لِلخالِقِ.

مِثْلُ: تَنزيهِ أحبارِهِم عَنِ الوَلَدِ والحاجَةِ؛ لأنهم يَقولونَ: إنَّ الرَّاغِبينَ في استِحصالِ الكَمالاتِ كالرُّهبانِ وأضْرابِهِم يَتَرَفَّعونَ عَن أنْ يَتَدَنَّسوا بِدَناءَةِ التَّمتُّعِ بِالنِّساءِ، اقتِداءً بِالمَسيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فانظُرْ إلى سَخافَةِ العُقولِ وما قادَهُم إليه ضَلالُهُم حَتَّى اعتَرَضوا على سَيِّدِنا ومولانا مُحمَّدٍ ﷺ في زَواجِهِ.

وما أحْسَنَ ما قالَه الفاروقِيُّ ردًّا على بعضِ أحبارِ النَّصارَى:

قل لِلفِرسْنَلِ قُدْوَةِ الرُّهبانِ ... الجاثَليقِ[١] البِتْرِكِ الرَّبَّاني[٢]

أنتَ الذي زَعَمَ الزَّواجَ نَقيصَةً ... مِمَّنْ حَماهُ اللهُ عَنْ نُقْصانِ

ونَسيتَ تَزْويجَ الإلهِ بِمَرْيَمٍ ... في زَعْمِ كُلِّ مُثَلِّثٍ نَصْراني[٣]

ومَن جَعَلَ مِنَ العَرَبِ الملائكةَ بناتِ اللهِ، كانَ يأْنَفُ مِنْهُنَّ، وَسَنَّ وَأْدَهُنَّ وَقَتْلَهُنَّ، وَنَسَبوا لِلَّهِ ما يكرهونَ.

والمقصودُ أنَّ هذهِ المَقالاتِ وأشباهَها مَنْشَؤها الجهلُ بِما جاءَت بِهِ الرُّسُلُ، وَعَدَمُ تَحْكيمِ العَقْلِ، وإلا فأهلُ البصائِرِ لا يَتَطَرَّقُ إليهم هذا الخَلَلُ، واللهُ الموَفِّقُ.

---

(١) الجاثليق - بفتح الثاء المثلثة - رئاسة دينية للنصارى في بلاد المسلمين.

(٢) هذا عندهم طبعًا.

(٣) بل يؤمنون بنبوة داود وسليمان وغيرهما عليهما السلام ويعلمون أنهما كان لديهما نساء كثيرات لكنه الكفر بمحمد ﷺ عناداً. وقد ذكر هذه الأبيات نعمان الألوسي في «الجواب الفسيح لما لفقه عبدالمسيح» (١/ ٥١٢) ونسبها للفاروقي.
والفرسنل الذي ذكره الفاروقي كان من مشهوري مدرسي النصارى، ورد بغداد عام ١٢٦٩هـ، وأورد على محمد الألوسي والد نعمان أسئلة كان من ضمنها سؤاله عن زواج النبي ﷺ، وزعمه أن ذلك ينافي الكمال، فأجابه الألوسي بأجوبة مفحمة.
انظر: «الجواب الفسيح» (١/ ٥١١-٥١٢).

الثانية والثلاثون

القولُ بالتَّعطيلِ، كما كانَ يقولُه آل فِرْعَونَ.

والتَّعطيلُ: إنكارُ أنْ يكونَ لِلعالَمِ صانعٌ[1]، كما قال فرعونُ لِقومِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ونحو ذلكَ.

ولم يَخْلُ العالَمُ عن مثلِ هذهِ الجَهالاتِ في كُلِّ عَصْرٍ مِنَ العُصورِ، وأبناءُ هذا الزَّمانِ إلا النَّادِرَ على هٰذِهِ العَقيدةِ الباطِلةِ، ولو نَظَروا بِعينِ الإنصافِ والتَّدَبُّرِ، لَعَلِموا أنَّ كُلَّ مَوجودٍ في العالَمِ يَدُلُّ على خالِقِهِ وبارِئِه:

وفـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ علـى أنَّـهُ واحِـدُ

ومِن أينَ لِلطَّبيعَةِ إيجادُ مِثْلِ هٰذِهِ الدَّقائِقِ التي نَجِدُها في الآفاقِ والأنْفُسِ، وهي عَديمَةُ الشُّعُورِ لا عِلْمَ لَها وَلا فَهْمَ ـ تَعَالى اللهُ عَمَّا يقولونَ عُلُوّاً كَبيراً ـ.

***

(١) انظر في التعطيل وأنواعه: «الجواب الكافي» لابن القيم (ص ١٥٣).

الثالثة والثلاثون

الشَّرِكَةُ في المُلْكِ، كما تَقولُهُ المَجوسُ.

والمجوسُ أُمَّةٌ تُعَظِّمُ الأنوارَ والنِّيرانَ والماءَ والأرضَ، ويُقِرُّونَ بِنُبُوَّةِ زرادِشْتَ، وَلَهُم شَرائِعُ يَصيرونَ إليها.

وهم فِرَقٌ شَتَّى:

مِنهم المَزْدَكِيَّةُ أصحابُ مَزْدَكَ المُوبَذ، والمُوبَذُ - عندهم -: العالِمُ القُدوةُ، وهؤلاءِ يَرونَ الاشتِراكَ في النِّساءِ والمَكاسِبِ كما يُشْتَرَكُ في الهَواءِ والطُّرُقِ وغيرها.

ومِنهم الخُرَّمِيَّةُ: أصحابُ بابِكَ الخُرَّمِيِّ، وهم شَرُّ طوائِفِهم، لا يُقِرُّون بِصانِعٍ ولا مَعادٍ ولا نُبُوَّةٍ ولا حَلالٍ ولا حَرامٍ.

وعلى مذهبِهِم طوائِفُ[(١)] يَجمعُهُم هذا المَذهَبُ، ويتَفاوَتونَ في التَّفصيلِ.

فالمجوسُ شُيوخُ هٰؤلاءِ كلِّهِم، وأئمتُهُم وقُدوتُهم، وإن كانَ المَجوسُ قد يَتَقَيَّدونَ بأصلِ دِينِهِم وشَرائِعِهِم، وهؤلاءِ لا يَتقَيَّدونَ بِدينٍ مِنْ دياناتِ العالَمِ، ولا بِشَريعَةٍ مِن شرائِعِهِ.

***

(١) سقط بمقدار سطرين.

الرابعة والثلاثون

إنكارُ النُّبُوَّاتِ.

وَكانوا يَقولون: ما حَكى اللهُ عنهم بقولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۞ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ﴾ (يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون)[١] ﴿ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩٠-٩١].

تفسيرُ هذه الآيةِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ شُروعٌ في تَقريرِ أمْرِ النُّبُوَّةِ، بَعْدَ ما حَكى اللهُ سبحانَه عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه ذَكَرَ دَليلَ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ، وَقَرَّرَ سبحانَه ذلكَ بأوضحِ الدَّليلِ وبأوْضَحِ وَجهٍ.

﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أيْ: حَقَّ مَعرفتِهِ[٢].

وعن بعضِهم: ما عَظَّموا اللهَ حَقَّ تَعظِيمِه[٣] ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ منكرينَ لبعثةِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، كافِرِينَ بِنعمةِ اللهِ الجَليلةِ فِيهما: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ﴾ أيْ: شَيْئًا مِن الأشياءِ.

واختُلِفَ في قائلِي ذلكَ القَولِ الشَّنيعِ: فَعَن مُجاهِدٍ أنَّهم مُشرِكو قُريشٍ، والجمهورُ على أنَّهمُ اليَهودُ، ومُرادُهُم مِن ذَلِكَ الطَّعْنُ في رِسالتِهِ ﷺ على سَبِيلِ المُبالَغَةِ.

فَقيلَ لَهم على سَبيلِ الإلزامِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، فإنَّ المُرادَ أنَّه تَعالى قَد أنْزَلَ التَّوراةَ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلاَ سَبيلَ لَكُم إلى إنكارِ ذلِكَ، فَلِمَ لا تُجوِّزُونَ إنزالَ القُرآنِ على مُحمَّدٍ ﷺ؟

---

(١) قوله تعالى: (يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون) كذا في المخطوط، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو.

(٢) وهذا قول أبي عبيدة معمر بن المثنى كما في زاد المسير (٣/ ٨٣).

(٣) وهذا قول ابن عباس كما في زاد المسير (٣/ ٨٣)، واعتمده ابن كثير في تفسيره.

والكلامُ في إثباتِ النُّبوَّةِ مُفصَّلٌ في غيرِ هذا الموضِعِ.

والمقصودُ أنَّ إنكارَها مِن سَنَنِ الجاهِلِيَّةِ ومعارِفِهِم، وفي النَّاسِ كَثيرٌ مِمَّن هو على شاكِلَتِهِم ومُعْوَجٌّ طَريقَتِهِم.

***

الخامسة والثلاثون

جحودُ القَدَرِ، والاحتِجاجُ بِهِ على اللهِ تعالى ومُعارَضَةُ شَرْعِ اللهِ بِقَدَرِ اللهِ.

وهذهِ المَسألَةُ مِن غَوامِض مَسائلِ الدِّينِ، والوُقوفُ على سِرِّها عَسِرٌ إلا على من وَفَّقَه اللهُ تعالى.

ولابنِ القيِّمِ كِتابٌ جَليلٌ في هذا البابِ سَمَّاه «شِفاءَ العَليل في القَضاءِ والقَدَرِ والحِكْمَةِ والتَّعْليلِ».

وقد أبطَلَ اللهُ سُبحانَه هٰذِهِ العَقيدةَ الجاهِلِيَّةَ بقولِهِ تَعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

تَفسيرُ هذه الآيةِ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾: حِكايةٌ لفَنٍّ آخَرَ مِن أباطيلِهِم.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾: لَمْ يُريدوا بِهذا الكَلامِ الاعتذار عَنِ ارتِكابِ القَبيحِ؛ إذْ لم يَعْتَقِدوا قُبحَ أفعالِهِم، بل هُم ـ كما نَطَقَتْ بِهِ الآيات ـ ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وأنَّهم إنَّما يَعْبُدونَ الأصنامَ لِيُقَرِّبوهُم إلى اللهِ زُلْفى، وأنَّ التَّحريمَ إنما كانَ مِن اللهِ ﷻ، فما مرادُهُم بذٰلِكَ إلا الاحتجاجُ على أنَّ ما ارتَكَبوهُ حَقٌّ ومَشروعٌ ومَرْضِيٌّ عند اللهِ تَعالى على أنَّ المشيئَةَ والإرادةَ تُساوي الأمرَ، وتَسْتَلْزِمُ الرِّضى، كما زَعَمَتِ المُعْتَزِلَةُ[1]، فَيَكونُ حاصِلُ

---

(١) المعتزلة: فرقة ضالة ظهرت في الإسلام أوائل القرن الثاني، وسلكت منهجاً قائماً على اتباع الهوى=

كَلامِهِم أنَّ ما نَرْتَكِبُهُ مِنَ الشِّرْكِ والتَّحريمِ وغيرِهما تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشيئَتُهُ سُبحانَه وإرادَتُه، فَهو مَشروعٌ ومَرْضِيٌّ عندَ اللهِ تَعالى.

وبَعْدَ أنْ حَكى سُبحانَهُ وتَعالى ذلِكَ عَنهم، رَدَّ عَلَيْهِم بِقَولِهِ - عَزَّ مِنْ قائِلٍ -: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهم أسلافُهُم المُشرِكونَ.

وحاصِلُهُ: أنَّ كلامَهم يَتَضَمَّنُ تكذيبَ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَقَدْ دَلَّتِ المُعْجِزَةُ على صِدْقِهِم.

أو نَقولُ: حاصِلُهُ: أنَّ ما شاءَ اللهُ يَجِبُ، وما لم يَشَأْ يَمْتَنِعُ، وكلُّ ما هذا شأنُه فلا تَكليفَ بِهِ؛ لِكونِهِ مَشروطًا بالاستِطاعةِ، فَيَنْتُجُ: أنَّ ما ارتَكَبَهُ مِن الشِّركِ وغيرِهِ، لَم يُكَلَّفْ بِتَرْكِهِ، ولمْ يُبْعَثْ لَهُ نَبِيٌّ، فَرَدَّ اللهُ تَعالى عَلَيهم بأنَّ هَذِهِ كَلِمَةُ صِدْقٍ أُريدَ بِها باطِلٌ؛ لأنَّهم أرادوا بِها أنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام في دَعْواهُمُ البِعْثَةَ والتَّكليفَ كاذِبونَ، وَقَدْ ثَبَتَ صِدْقُهُم بِالدَّلائِلِ القَطْعِيَّةِ، ولِكَونِهِ صِدْقًا أُريدَ بِهِ باطِلٌ، ذَمَّهُمُ اللهُ تَعالى بِالتَّكْذيبِ.

وَوجوبُ وُقوعِ مُتَعَلِّقِ المَشيئَةِ لا يُنافِي صِدقَ دَعْوى البِعثَةِ والتَّكليفِ؛ لأنَّهما لإظهارِ المَحَجَّةِ وإبلاغِ الحُجَّةِ.

﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، أيْ: نالوا عَذابَنا الذي أنزَلْناهُ عَلَيْهِم بِتَكْذيبِهِم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ لهم عَذابًا مُدَّخَرًا عِندَ اللهِ تَعالى؛ لأنَّ الذَّوقَ أوَّلُ إدراكِ الشَّيْءِ.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾، أيْ: هلْ لَكُمْ مِنْ عِلْمٍ بأنَّ الإشراكَ وسائِرَ ما أنتُم عَلَيه مَرْضِيٌّ لِلَّهِ تَعالى فَتُظْهِروهُ لَنا بِالبُرْهانِ؟

وهذا دَليلٌ على أنَّ المُشرِكينَ أُمَمٌ استَوجَبوا التَّوبيخَ على قولِهم ذلك؛ لأنَّهم كانوا يَهْزَؤونَ بالدِّين، ويَبْغونَ رَدَّ دَعْوةِ الأنبياءِ عليهم السلام، حَيْثُ قَرَعَ مَسامِعَهم مِن

= في العقائد الإسلامية، ولهم بدع كثيرة، من أهمها التحكُّم بعقولهم وأفهامهم القاصرة في الوحيين الشريفين: الكتاب والسنة، بدل السمع والطاعة، وقد ضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

شَرائِعِ الرسُلِ عليهم السلام تفويضُ الأمورِ إلَيْهِ سُبحانَه وتَعالى، فَحينَ طالَبوهُم بالإسلامِ، والتِزامِ الأحكامِ، احْتَجُّوا عَلَيْهِم بِما أخذوه مِن كَلامِهِم مُسْتَهْزِئينَ بِهِم - عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ -، ولم يَكُنْ غَرَضُهُمْ ذِكْرَ ما يَنْطَوي عَلَيْهِ عِقْدُهُم، كَيفَ لا والإيمانُ بِصفاتِ اللهِ تَعالى فَرْعُ الإيمانِ بِهِ - عَزَّ شأنُهُ - وَهُوَ عَنهم مناطُ العَيُّوق(١).

(إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)، أيْ: تكْذِبونَ على اللهِ تَعالى.

(قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ)، أيْ: البيِّنةُ الواضِحةُ التي بَلَغَتْ غايَةَ المَتانَةِ والقُوَّةِ على الإثباتِ، والمُرادُ بِها في المَشهورِ: الكتابُ والرَّسولُ والبَيانُ.

(فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ): بِالتَّوفيقِ لَها، والحَمْلِ عَليها، وَلَكِنْ شاءَ هِدايَةَ البَعْضِ الصَّارِفينَ اختِيارَهُم إلى سُلوكِ طَريقِ الحَقِّ، وضَلالَ آخَرينَ صَرَفوه إلى خِلافِ ذَلِكَ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ ذَكَرَ وَجهًا آخَرَ في توجيهِ ما في الآيةِ، وهو أنَّ الرَّدَّ عَليهم إنَّما كانَ لاعْتِقادِهِم أنَّهم مُسَلِّمونَ اختيارَهم وقُدْرَتَهم، وأنَّ إشراكَهم إنَّما صَدَرَ مِنهم على وجْهِ الاضْطرارِ وَزَعَموا أنَّهم يُقيمونَ الحُجَّةَ على اللهِ تَعالى ورسوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بِذَلِكَ، فَرَدَّ اللهُ تَعالى قَولَهم في دَعْواهُم عَدَمَ الاخْتيارِ لأنفُسِهِم، وَشَبَّهَهُمْ بِمَنِ اغْتَرَّ قَبْلَهُم بِهذا الخَيالِ، فَكَذَّبَ الرُّسُلَ، وَأشْرَكَ بِاللهِ عز وجل، واعْتَمَدَ على أنَّه إنَّما يَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَشيئَةِ اللهِ تَعالى وَرامَ إفْحامَ الرُّسُلِ بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَه أنَّهم لا حُجَّةَ لَهم في ذَلِكَ، وأنَّ الحُجَّةَ البالِغَةَ لَه تَعالى لا لَهم، ثُمَّ أوْضَحَ سُبحانَه أنَّ كُلَّ واقِعٍ واقِعٌ بِمشيئَتِهِ، وأنَّه لم يَشَأْ مِنهمْ إلاَّ ما صَدَرَ عَنهم، وأنَّه تَعالى لَو شاءَ مِنهمُ الهِدايةَ لاهْتَدَوا أجْمَعينَ.

والمقصودُ أنْ يَتَمَحَّضَ وجهُ الرَّدِّ عَليهم، وَتَتَخَلَّصَ عَقيدةُ نُفوذِ المشيئةِ وعُموم

---

(١) العَيُّوق: كوكب أحمر مضيء، بحيال الثريا من ناحية الشمال، ويطلع قبل الجوزاء. لسان العرب «عيق».

تَعَلُّقِها[1] بِكُلِّ كائنٍ عنِ الرَّدِّ، ويَنْصَرِفَ الرَّدُّ إلى دَعواهُم سَلْبَ الاخْتيارِ لأنفُسِهِم، وأنَّ إقامتَهم الحُجَّةَ بِذلِكَ خاصَّة.

وإذا تَدَبَّرْتَ الآيةَ وَجَدْتَ صَدرَها دافِعاً لِصُدورِ الجَبْرِيَّةِ، وعَجُزَها مُعْجِزًا للمُعْتَزِلَةِ، إذِ الأوَّلُ مُثبِتٌ أنَّ لِلعَبْدِ اختياراً وقُدْرةً على وجْهٍ يَقْطعُ حُجَّتَه وعُذْرَهُ في المُخالَفَةِ والعِصْيانِ، والثّاني مُثبِتٌ نُفوذَ مَشيئَةِ اللهِ تعالى في العبدِ، وأنَّ جَميعَ أفعالِه على وَفْقِ المَشيئةِ الإلٰهيَّةِ، وبذلكَ تَقومُ الحُجَّةُ لأهلِ السُّنَّةِ على المُعتزلةِ، والحمدُ لِلّٰهِ ربِّ العالَمِينَ.

ومِنهم مَن وجَّهَ الآيةَ بأنَّ مرادَهم رَدُّ دعوةِ الأنبياءِ عليهم السلام على مَعنى أنَّ اللهَ تَعالى شاءَ شِرْكَنا، وَأرادَهُ مِنّا، وَأنتُم تُخالِفونَ إرادتَه، حَيثُ تَدعونا إلى الإيمانِ، فَوَبَّخَهُم سُبحانَه وتَعالى بِوُجوهٍ عِدَّةٍ:

منها: قولُه سُبحانَه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، فإنَّه بِتقديرِ الشَّرطِ، أيْ: إذا كانَ الأمرُ كما زَعَمْتُم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

وقولُه سُبحانَه: ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ بَدَلاً منه على سَبيلِ البَيانِ، أيْ: لَو شاءَ لَدَلَّ كُلًّا منكم ومِنْ مُخالِفيكم على دينِه، لَو كانَ الأمرُ كَما تَزْعُمونَ، لَكان الإسلامُ - أيضاً - بِالمشيئةِ، فَيَجِبُ أنْ لا تَمْنَعوا المُسلِمينَ من الإسلامِ، كَما وَجَبَ بِزعمكم ألا يمنَعَكُم الأنبياءُ عن الشِّركِ، فَيَلْزَمُكُم أنْ لا يكونَ بَيْنَكم وبَيْنَ المُسْلِمينَ مُخالَفَةٌ ومُعاداةٌ، بَلْ موافَقَةٌ وموالاةٌ.

وحاصِلُه: أنَّ ما خالَفَ مَذْهَبَكم منَ النِّحَلِ يَجِبُ أنْ يَكونَ عِندكم حَقًّا؛ لأنَّه بِمشيئةِ اللهِ تَعالى، فَيَلْزَمُ تَصحيحُ الأديانِ المُتناقِضَةِ.

وَفي سورةِ «النَّحْلِ» [٣٥]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

---

(١) في الأصل نفوذ السنة وعموم تغلغلها، والتصويب من روح المعاني.

الكلامُ عَلى هٰذِهِ الآيةِ كالكَلامِ على الآيةِ السَّابِقةِ، وَلا تَراهُمْ يَتَشَبَّثُونَ بِالمشيئةِ إلا عِنْدَ انخِذالِ الحُجَّةِ، ألا تَرَى كَيفَ خَتَمَ بِنَحوِ آخِرِ مجادلاتهم في سورة «الأنعام» في الآية السابقة، وكذلك في سورة «الزخرف» [١٩-٢٢]، وهو قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ * وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

وَيَكْفِي في الانقِلابِ ما يُشيرُ إليه قَولُه سُبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، والمُرادُ بِما حَرَّموهُ: السَّوائِبُ والبَحائرُ وغَيْرُها.

وَفِي تَخصيصِ الاشْتِراكِ والتَّحريمِ بالنَّفي؛ لأنَّهُما أعْظَمُ وأشْهَرُ ما هُمْ عَلَيْهِ، وَغَرَضُهُم مِنْ ذَلِكَ تَكذيبُ الرَّسولِ ـ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ والطَّعْنُ في الرِّسالةِ رأساً؛ فَإنَّ حاصِلَهُ: أيْ ما شاءَ اللهُ يَجِبُ، وما لمْ يَشأْ يَمْتَنِعُ، فَلَوْ أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى شاءَ أنْ نُوَحِّدَهُ، وَلاَ نُشرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَنُحَلِّلَ ما أحَلَّهُ، ولا نُحَرِّمَ شَيْئاً مِمَّا حَرَّمْنا ـ كَما تَقولُ الرُّسُلُ وَيَنْقُلونَه مِنْ جِهَتِهِ تَعالى ـ لَكانَ الأمرُ كَما شاءَ مِنَ التَّوحيدِ ونَفْيِ الإشراكِ، وَتَحليلِ ما أحَلَّهُ، وَعَدَمِ تَحريمِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَحَيْثُ لَم يَكُنْ كَذلِكَ، ثَبَتَ أنَّه لَم يَشأْ شَيْئاً مِن ذَلِكَ، بَلْ شاءَ ما نحنُ عَلَيْهِ، وتَحَقَّقَ أنَّ ما يَقولُهُ الرُّسُلُ عليهم السلام مِن تِلْقاءِ أنْفُسِهِمْ.

فَرَدَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمَمِ، أيْ: أشْرَكوا بِاللهِ تَعالى، وَحَرَّموا مِنْ دونِهِ ما حَرَّموا، وجادَلُوا رُسُلَهُمْ بِالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الحَقَّ.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أيْ: ليستْ وَظيفَتُهُمْ إلا البَلاغَ للرِّسالَةِ، المُوَضِّحَ طَريقَ الحَقِّ، والمُظْهِرَ أحْكامَ الوحْيِ التي مِنها تَحَتُّمَ تَعَلُّقِ مَشيئَتِهِ تَعالى باهْتِداءِ مَنْ صَرَفَ قُدْرَتَهُ واخْتِيارَهُ إلى تَحْصيلِ الحَقِّ؛ لقولِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأمّا إلجاؤهُمْ إلى ذَلِكَ، وتَنفيذُ قَوْلِهِم عليهِ شاؤوا أوْ أبَوْا ـ كما هو مُقْتَضى استِدْلالِهِم ـ فليسَ ذَلِكَ مِن وَظيفَتِهِم، ولا مِن الحِكْمَةِ التي يَتَوَقَّفُ عَلَيْها التَّكْليفُ، حَتَّى يُسْتَدَلَّ بعدمِ ظُهورِ آثارِهِ على عدم حَقِّيَّةِ الرسلِ عليهم السلام أو على عدمِ تَعَلُّقِ مَشَيئَتِهِ تَعالى بِذَلِكَ، فإنَّ ما يَتَرَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ مِن الأفعالِ لا بُدَّ في تَعَلُّقِ مَشيئتِهِ تَعالى بوقوعِهِ مِن مُباشَرَتِهِم الاختِيارِيَّةِ، وَصَرْفِ اختِيارِهِم الجُزْئِيِّ إلى تَحْصيلِهِ، وإلا لَكانَ الثَّوابُ والعِقابُ اضْطِرارِيينِ.

والكلامُ على هذهِ الآيةِ ونحوِها مُسْتَوْفىً في تفسير «رُوحِ المعاني»[1] وغيرِهِ.

فجُحودُ القَدَرِ، والاحتجاجُ بِهِ على اللهِ، ومُعارَضَةُ شرعِ اللهِ بِقَدَرِهِ، كُلُّ ذَلِكَ مِن ضَلالاتِ الجاهِلِيَّةِ.

والمَقْصودُ أنَّهُ لا جَبْرَ وَلا تَفْويضَ، ولكنْ أمْرٌ بَيْنَ أمْرَيْنِ، فمَنْ زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنْ هَذِهِ الجادَّةِ كانَ على ما كانَ عليهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ، وهِيَ الطَّريقَةُ التي رَدَّ عَلَيْهَا اللهُ سُبحانَه ورَسُولُهُ ﷺ.

***

(١) (٨/ ٥١-٥٣).

السادسة والثلاثون

مسبَّةُ الدَّهرِ.

كقولِهِم في سورةِ «الجاثيةِ» [٢٤]: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾.

وذٰلكَ أنَّ اللهَ تَعالى أرادَ بَيانَ أحكامِ ضلالِهِم، والخَتْمِ على سَمْعِهِم وقُلوبِهِم، وجَعلِ غِشاوةٍ على أبصارِهِم، فَحَكى عنهم ما صَدَرَ عنهم بقولِهِ سُبحانَه وتَعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نَحنُ فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أيْ: تَموتُ طائِفةٌ، وتَحيا طائِفةٌ، ولا حَشْرَ أصلاً.

وَمِنهم مَن قالَ: إنَّ كَثيراً مِن عُبَّادِ الأصنامِ كانَ يقولُ بِالتَّناسُخِ، وَعَلَيْهِ فالمُرادُ بِالحياةِ: إعادةُ الرُّوحِ لِبَدَنٍ آخَرَ.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، أيْ: طولُ الزَّمانِ.

وإسنادُهُمُ الإهلاكَ إلى الدَّهْرِ إنكارٌ مِنهم لِمَلَكِ الموتِ وقَبْضِهِ الأرواحَ بِأمرِ اللهِ تَعالى، وكانوا يُسْنِدونَ الحوادِثَ مُطْلَقاً إلَيْهِ؛ لِجَهْلِهِم أنَّها مُقَدَّرَةٌ مِن عندِ اللهِ تَعالى، وأشعارُهُم لِذَلِكَ مَملوءَةٌ مِن شَكْوى الدَّهْرِ(١).

وهؤلاءِ مُعْتَرِفون بوجودِ اللهِ تَعالى، فَهُمْ غَيْرُ الدَّهْرِيَّةِ، فإنَّهم - مَعَ إسنادِهِمُ الحوادِثَ إلى الدَّهْرِ - لا يَقولونَ بِوُجودِهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾. [الإسراء: ٤٣].

---

(١) جاء في حاشية الأصل ما نصه: «مثل قولهم:

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشي

ومثل قول الآخر:

منع البقاء تقلب شمس ... وطلوعها من حيث لا تمسي

وقول الآخر:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبالي

وكنت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

والشعر في ذلك قديماً وحديثاً كثير.

والكُلُّ يقولُ باسْتِقْلالِ الدَّهْرِ بالتَّأثيرِ.

وقَدْ جاءَ النَّهيُ عَنْ سبِّ الدَّهْرِ.

أخرجَ مُسْلِمٌ: «لا يَسُبُّ أحدُكُم الدَّهرَ، فإنَّ اللهَ هو الدَّهرُ»[١].

وفي رِوايةٍ لأبي داودَ والحاكِمِ[٢]: «قالَ اللهُ ﷻ: يُؤذيني ابنُ آدمَ يقولُ: يا خيبةَ الدَّهرِ، فلا يَقُلْ أحدُكُم يا خيبةَ الدَّهرِ، فإنِّي أنا الدَّهرُ، أُقلِّبُ لَيْلَهُ ونَهارَهُ»[٣].

ورَوى الحاكِمُ[٤] - أيضاً -: «يقولُ اللهُ ﷻ: استَقْرَضْتُ عَبْدي فلم يُقرِضْني، وشَتَمَني عبدي وهو لا يَدْري، يقولُ: وا دَهْراهُ! وأنا الدَّهرُ».

ورَوى البيهقيُّ[٥]: «لا تَسُبُّوا الدَّهرَ، قال اللهُ ﷻ: أنا الأيَّامُ والليالِي، أُجدِّدُها وأُبْلِيها، وآتي بِمُلوكٍ بَعْدَ مُلوكٍ».

ومَعْنى ذَلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى هو الآتي بالحوادِثِ، فإذا سَبَبْتُمُ الدَّهرَ على أنَّهُ فاعِلٌ، وَقَعَ السَّبُّ عَلى اللهِ ﷻ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، أيْ: لَيسَ لَهم بما ذُكِرَ مِنْ قَصْرِ الحياةِ على ما فِي الدُّنيا ونِسْبَةِ الإهلاكِ إلى الدَّهرِ عِلمٌ مُسْتَنِدٌ إلى عَقْلٍ أو نَقْلٍ.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أيْ: ما هُم إلا قَوْمٌ قُصارى أمرِهِم الظَّنُّ والتَّقْليدُ مِنْ غَيْرِ أنْ يَكونَ لَهُم ما يَصِحُّ أنْ يُتَمَسَّكَ بِهِ في الجُمْلَةِ.

---

(١) رواه مسلم في (الألفاظ من الأدب وغيرها: ٥٨٦٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود في سننه بنحوه برقم (٥٢٧٤)، وهو آخر حديث في السنن عنده، والحاكم في مستدركه (كتاب التفسير/ تفسير سورة حم الجاثية: ٢/ ٤٥٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه هكذا».

(٣) وفي رواية لمسلم في (الألفاظ: ٥٨٦٤): «قال الله تبارك وتعالى: يُؤذيني ابنُ آدمَ يقولُ يا خيبةَ الدهرِ، فلا يقولنَّ أحدكم: يا خيبة الدهر! فإني أنا الدهرُ، أقلِّب ليلهُ ونهارهُ، فإذا شئتُ قبضتُهما» فاستدراك الحاكم وهم منه أن مسلم لم يخرجه.

(٤) في مستدركه (كتاب التفسير/ باب تفسير سورة حم الجاثية: ٢/ ٤٥٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة».

(٥) في السنن الكبرى (٣/ ٣٦٥).

وقَدْ ذَكَرْنَا في غَيْرِ هذا المَوْضِعِ ما يَتَعَلَّقُ بالدَّهْرِيينَ.

والمقصودُ أنَّ مَن يقول بإسنادِ الحوادثِ إلى غيرِ اللهِ تَعالى كالدَّهرِ، فَلَيسَ لَهُ مُسْتَنَدٌ عقلِيٌّ وَلاَ نَقْلِيٌّ، بَل هو مَحْضُ جَهْلٍ، وقائِلُهُ جاهلٌ في أيِّ عَصْرٍ كانَ.

وَلأهلِ زَمانِنا حَظٌّ وافِرٌ مِن هذا الاعْتِقادِ الباطِلِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

***

السابعة والثلاثون

إضافةُ نِعَمِ اللهِ إلى غيرِهِ.

قال اللهُ تَعالى في سورةِ «النَّحلِ» [٨٣]: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقدْ عَدَّدَ اللهُ تَعالى نِعَمَهُ على عِبادِهِ في هذهِ السُّورةِ، إلى أنْ قالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨١-٨٣].

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، اسْتِئنافٌ لِبيانِ أنَّ تَوَلِّيَ المُشْرِكينَ وإعراضَهم عن الإسلامِ، لَيْسَ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِم نِعمةَ اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى أصلاً، فإنَّهم يَعرِفون أنَّها مِن اللهِ تَعالى، ثُمَّ يُنْكِرونَها بأفعالِهِم، حيثُ لم يُفْردوا مُنْعِمَها بالعِبادةِ، فَكَأنَّهم لمْ يَعْبُدوه سُبحانه وَتَعالى أصْلاً، وذَلِكَ كُفْرانٌ مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الإنْكارِ.

وأخرجَ ابنُ جريرٍ وغيرهُ عَنْ مُجاهِدٍ أنَّه قَالَ: «إنكارُهُم إيَّاها قولُهم: وَرِثْناها مِن آبائِنا»[١].

وأخرجَ هو وغيرُهُ ـ أيْضاً ـ عن عونِ بنِ عبدِاللهِ أنَّه قالَ: «إنكارُهم إيَّاها أنْ يقولَ الرَّجُلُ: لَوْلا فلانٌ أصابَني كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلا فلانٌ لم أُصِبْ كَذَا

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره بنحوه (١٤/١٥٨).

وَكَذَا»[(١)].

وَفِي لَفْظٍ: «إنكارُها: إضافتُها إلى الأسباب».

ويعضُهُم يقولُ: إنكارُهُم: قولُهم: هي بشفاعةِ آلهتِهِم عند اللهِ تَعالى.

وَمِنهم مَن قالَ: النّعمةُ ـ هنا ـ مُحَمَّدٌ ﷺ،[(٢)] أي: يَعْرِفونَ أنّه ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ نَبِيٌّ بِالمُعْجِزاتِ، ثُمَّ يُنْكِرون ذَلِكَ، وَيَجْحَدونَه عِنادًا.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: المُنكِرون بِقُلوبِهِم، غيرُ المُعْتَرِفين بما ذُكِرَ، والتَّعبيرُ بالأكثرِ إمّا لأنَّ بعضَهم لم يَعْرِفِ الحَقَّ؛ لِنُقصانِ عقلِه، وعدمِ اهتدائِهِ إليهِ، أو لِعدمِ نَظَرِهِ في الأدلّةِ نَظَراً يُؤدِّي إلى المَطْلوبِ، أو لأنّه لَمْ تَقُمْ عليهِ الحُجَّةُ؛ لِكونِهِ لَم يَصِلْ إلى حَدِّ المُكَلَّفينَ لِصغَرٍ ونحوِه، وإمّا لأنّه يُقامُ مقامَ الكُلِّ، فإسنادُ المعرفةِ والإنكارِ المتفرّعِ عَلَيْها إلى ضَميرِ المشركينَ على الإطلاقِ مِن بابِ إسنادِ حالِ البعضِ إلى الكلِّ.

وَمِمّا يَجْرِي هذا المَجْرى قولُهُ تَعالى في سورةِ «الواقعةِ» [٨١-٨٢]: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: تَقولونَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا وكَذا.

رَوَى مُسْلِمٌ وغيرُهُ عن ابنِ عبّاسٍ، قالَ: «مُطِرَ النّاسُ على عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ـ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ: أَصْبَحَ مِنَ النّاسِ شاكِرٌ، ومِنهم كافِرٌ، قالوا: هذهِ رحمةٌ وَضَعَها اللهُ، وقالَ بعضُهم: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . . .﴾ حَتّى بَلَغَ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]».

إِلَى غيرِ ذَلِكَ مِنَ الآثارِ.

وَقَدْ ذَكَرْنا مَذهبَ العربِ في الأنواءِ في غيرِ هذا الموضِعِ، وَفَصَّلْناه تفْصيلاً، وَذَكَرْنا شِعْرَهُمُ الدّالَّ على مَذْهَبِهِم هذا، واللهُ المُوَفِّقُ.

* * *

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ١٥٨).

(٢) وهذا قول الفراء كما في معاني القرآن له (٢/ ١١٢)، وقول ابن قتيبة كما في زاد المسير (٤/ ٤٧٩)، وعزاه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ١٥٧) إلى السدي.

الثامنة والثلاثون

الكفرُ بآياتِ اللهِ.

والنصوصُ الدالَّةُ على ذٰلك في القرآنِ كثيرةٌ:

مِنها قولُهُ تَعالى في «الكَهْفِ» [١٠٥-١٠٦]: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ بَعْدَ قولِهِ سُبحانَه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ. . .﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] إلخ.

فقولُه: ﴿أُولَٰئِكَ﴾: كلامٌ مُستأنَفٌ منهُ مَسوقٌ لتكْميلِ تعريفِ الأخسَرينَ، وتَبيينِ خُسرانِهِم وضَلالِ سَعْيِهِم وتَعْيينِهِم، بِحيثُ يَنْطَبِقُ التَّعريفُ على المُخاطَبينَ، أيْ: أولئكَ المَنْعوتونَ بِما ذُكِرَ من ضَلالِ السَّعْيِ والحُسْبانِ المذكورِ.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: بِدلائِلِهِ سُبحانَه الدَّاعِيَةِ إلى التَّوحيدِ، الشَّامِلةِ للسَّمعيَّةِ والعقليَّةِ.

﴿وَلِقَائِهِ﴾: هو كِنايةٌ عن البَعثِ والحَشْرِ وما يَتْبَعُ ذلك من أُمورِ الآخِرةِ، أيْ: لم يؤمِنوا بِذَلِكَ على ما هو عَلَيه.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾: أيْ: فَنَزْدري بِهِم، وَنَحْتَقِرُهُم.

ومِنَ النُّصوصِ ما يَدُلُّ على أنَّ مِنهم مَن كان يُنْكِرُ بَعضَ الآياتِ، ومِنهم مَن كانَ مُعْرِضًا عَنها، وهاجِرًا لها.

ولاَ يَخْفاك أنَّ مِنَ النَّاسِ اليومَ مَن هُوَ أدهى وأمَرُّ مِمَّا كانَ عَلَيْهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ فِي

هَذَا البابِ.

التاسعة والثلاثون

اشْتِراءُ كُتُبِ الباطِلِ، واخْتِيارُها عليها، أيْ: عَلى الآيات.

قالَ تَعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ. . . ﴾ [البقرة: ٩٩-١٠٢].

إلى قوله: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وَمعنى قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾، أيْ: اسْتَبْدَلَ ما تَتْلوا الشَّياطينُ بكتابِ اللهِ.

﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، أيْ: نَصيبٍ.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾، أيْ: واللهِ لَبِئْسَ شَيْئًا شَرَوا بِهِ حُظوظَ أنْفُسِهِم، أيْ: باعوها أو شَرَوْها في زَعْمِهِم ذَلِكَ الشِّراءَ.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾، أيْ: بِالرَّسولِ أوْ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنَ الآياتِ أو بِالتَّوْراةِ.

﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾، أيْ: المَعاصيَ التي حُكِيَتْ عَنْهُمْ.

﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: أنَّ ثَوابَ اللهِ تَعالى خَيْرٌ لَهُمْ.

وبِمَعْنى هَذِهِ الآيةِ قولُه تَعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨-٧٩].

وَهَذِهِ الآيةُ نَزَلَتْ في أحبارِ اليهودِ الذينَ خافُوا أنْ تَذهبَ رِئاسَتُهُم بِإبْقاءِ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ على حالِها، فَغَيَّروها.

الأربعــون

القَدْحُ في حِكْمَتِهِ تعالى.

أقولُ: مِنْ خِصالِ أهلِ الجاهِلِيَّةِ: القَدْحُ في حِكْمَتِهِ تَعالى، وأنَّهُ لَيْسَ بِحَكيمٍ في خَلْقِهِ، بِمعنى أنَّه سُبحانَه يَخْلُقُ ما لا حِكْمَةَ لَهُ فيهِ، وَيَأمُرُ وَيَنْهى بِما لا حِكْمَةَ فيهِ.

وقد حَكى اللهُ تَعالى ذَلِكَ بِقولِهِ في سورةِ «صۤ» [٢٧]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وَقالَ سُبحانَه في سورةِ «المؤمنين» [١١٥-١١٦]: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

وفي سورةِ «الدُّخانِ» [٣٨-٣٩]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي سورةِ «الأنبياءِ» [١٦-١٧]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

وفي سورةِ «الحِجْرِ» [٨٥]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

إلى غيرِ ذلكَ من الآياتِ النَّاصَّةِ على أنَّ اللهَ تَعالى لَم يَخلُقْ شَيْئًا مِن غيرِ حِكمةٍ وَلا عِلَّةٍ، عَلى خِلافِ ما يَعْتَقِدُهُ أهلُ الباطِلِ مِنَ الجاهِلِيِّينَ، وَمَن نَحا نَحوَهُمْ مِن هٰذِهِ الأمَّةِ مِمَّنْ نَفى الحِكمةَ عَن أفعالِهِ سُبحانَه وَتَعالى.

وهَذِهِ مَسألةٌ طويلةُ الذَّيلِ، قَدْ كَثُرَ فيها الخِصامُ بَيْنَ فِرَقِ المُسلِمينَ، والحقُّ ما كانَ عَلَيه السَّلَفُ مِن إثباتِ الحِكمةِ والتَّعليلِ.

وقدْ أطْنَبَ الكلامَ عليها الحافِظُ ابنُ القيِّم في كِتابِه «شِفاءِ العليلِ في مسائلِ القَضاءِ والقَدَرِ والحِكْمَةِ والتَّعْليلِ»، وَعَقَدَ بابًا مُفَصَّلاً في طُرُقِ إثباتِ حِكمةِ الرَّبِّ تَعالى في خَلْقِهِ وَأمْرِهِ، وإثباتِ الغاياتِ المَطلوبةِ والعواقِبِ الحَميدَةِ الَّتي فَعَلَ وَأَمَرَ لأجْلِها.

ومِن جُملةِ ما قالَ في هذا الباب: «إنَّه سُبحانَه وَتَعالى أنكَرَ على مَن زَعَمَ أنَّه لم يخلُقِ الخَلْقَ لِغايةٍ ولا بِحكمةٍ، كَقَولِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾، وَقَولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، والحَقُّ: هو الحِكَمُ والغاياتُ المحمودةُ، التي لأجلِها خَلَقَ ذَلِكَ كُلَّهُ وهو أنواعٌ كثيرةٌ:

منها: أنْ يُعْرَفَ اللهُ بأسمائِهِ، وصِفاتِهِ، وأفعالِهِ، وآياتِهِ.

ومِنها: أنْ يُحَبَّ، وَيُعْبَدَ، وَيُشْكَرَ، ويُطاعَ.

ومِنها: أنْ يأمُرَ، وَيَنْهى، وَيُشَرِّعَ الشَّرائِعَ.

ومِنها: أنْ يُدَبِّرَ الأمرَ، ويُبْرِمَ القَضاء، وَيَتَصَرَّفَ في المَمْلَكَةِ بأنواعِ التَّصَرُّفاتِ.

ومِنها: أنْ يُثيبَ ويُعاقِبَ، فَيُجازِيَ المُحْسِنَ بإحْسانِهِ، والمُسيءَ بِإساءَتِهِ، فَيكونَ أثَرُ عَدْلِهِ وفَضْلِهِ موجودًا مُشاهَداً، فَيُحْمَدَ على ذَلِكَ ويُشْكَرَ.

ومِنها: أنْ يُعْلِمَ خَلْقَهُ أنّه لا إلَهَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِواهُ.

ومِنها: أنْ يَصْدُقَ الصّادِقُ فَيُكْرِمَهُ، وَيَكْذِبَ الكاذِبُ فَيُهِينَهُ.

ومِنْها: ظُهورُ آثارِ أسْمائِهِ وَصِفاتِهِ عَلى تَنَوُّعِها وكَثْرَتِها في الوُجودِ الذِّهْنِيِّ والخارِجِيِّ، فَيَعْلَمَ عِبادُهُ ذَلِكَ عِلْماً مُطابِقاً لِما في الواقعِ.

ومِنْها: شَهادةُ مَخْلوقاتِهِ كُلِّها بِأنَّهُ وَحْدَهُ رَبُّها وَفاطِرُها ومَليكُها، وأنَّهُ وَحْدَهُ إلهُها ومَعْبودُها.

ومِنْها: ظُهورُ آثارِ كَمالِهِ المُقَدَّسِ، فإنَّ الخَلْقَ والصُّنْعَ لازِمُ كَمالِهِ، فإنّه حَيٌّ

قديرٌ، ومَن كانَ كَذَلِكَ لم يَكُنْ إلا فاعِلاً مُختاراً.

ومِنها: أنْ يُظْهِرَ أثَرَ حكمتِهِ في المخلوقاتِ بوضعِ كُلٍّ مِنها في مَوضِعِهِ الذي يَليقُ بِهِ، ومَجيئِهِ على الوجهِ الذي تَشْهَدُ العُقولُ والفِطَرُ بِحُسْنِهِ، فَتشْهَدَ حِكْمَتَهُ الباهِرةَ.

ومِنها: أنَّه سُبحانه يُحِبُّ أنْ يَجودَ ويُنْعِمَ، ويَعْفُوَ ويَغْفِرَ ويُسامحَ، ولا بُدَّ مَن لوازمِ ذَلِكَ خَلْقًا وشَرْعًا.

ومِنها: أنَّه يُحِبُّ أنْ يُثْنى عَلَيْهِ، ويُمْدَحَ ويُمَجَّدَ، وَيُسَبَّحَ وَيُعَظَّمَ.

ومِنها: كثرةُ شواهدِ رُبوبِيَّتِهِ وَوَحْدانِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

إلى غير ذلكَ من الحِكمِ التي تَضمَّنَها الخَلْقُ، فَخَلَقَ مَخْلوقاتِهِ بِسببِ الحَقِّ، ولأجْلِ الحَقِّ، وَخَلْقُها مُلْتَبِسٌ بالحَقِّ، وهو في نفسِهِ حَقٌّ، فَمَصْدَرُهُ حَقٌّ، وغايتُه حَقٌّ، وهو يَتَضَمَّنُ الحَقَّ.

وقَدْ أثْنَى على عِبادِهِ المؤمِنينَ حَيْثُ نَزَّهوهُ عنْ إيجادِ الخَلْقِ، لا لِشَيْءٍ ولا لِغايةٍ، فَقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وَأخبَرَ أنَّ هَذَا ظَنُّ أعدائِهِ، لا ظَنُّ أوليائِهِ، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وكيفَ يَتَوَهَّمُ أنَّه عَرَفَهُ مَن يقولُ: إنَّه لم يَخلقِ الخَلْقَ لِحكمةٍ مطلوبةٍ لَه، ولا أمَرَ لِحكمةٍ، ولا نَهى لِحكمةٍ، وإنَّما يَصْدُرُ الخَلْقُ والأمرُ عن مشيئَةٍ وقُدْرةٍ مَحْضَةٍ، لا لِحكمةٍ ولا لِغايةٍ مقصودةٍ؟!

وهلْ هذا إلا إنكارٌ لحقيقة حَمْدِهِ؟!

بَل الخَلْقُ والأمرُ إنَّما قامَ بالحِكَمِ والغاياتِ، فَهُما مَظْهَرانِ لِحمدِهِ وحِكمتِهِ:

فإنكارُ الحكمةِ إنكارٌ لِحَقيقةِ خَلْقِهِ وأمرِهِ؛ فإنَّ الذي أثبتَهُ المُنْكِرونَ مِن ذَلِكَ يَتَنَزَّهُ عنه الرَّبُّ، ويَتَعالى عَن نسبتِهِ إليهِ، فإنَّهم أثْبَتوا خَلْقاً وأمراً لا رَحْمَةَ فيهِ ولا مَصْلَحَةَ ولا حِكمةَ، بَلْ يَجوزُ عِنْدَهُم ـ أو يَقَعُ ـ أنْ يَأمُرَ بما لا مَصلحةَ لِلْمُكَلَّفِ فيه البتَّةَ، ويَنْهى عَمَّا فيه مَصلحةٌ، والجميعُ بالنِّسبةِ إليه سواءٌ.

ويَجوزُ ـ عِندَهم ـ أنْ يَأمُرَ بِكُلِّ ما نَهى عَنه، وَيَنْهَى عن جَميعِ ما أمَرَ بِهِ، ولا فَرْقَ بَيْنَ هٰذَا وهٰذَا إلاَّ بِمُجَرَّدِ الأمْرِ والنَّهْيِ.

وَيَجوزُ ـ عِندَهم ـ أنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَم يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَينٍ، ويُثيبَ مَن عصَاهُ بلْ أفنى عُمُرَهُ في الكُفْرِ بِهِ والشِّرْكِ والظُّلْمِ والفُجورِ؛ فَلاَ سَبيلَ إلى أنْ يُعْرَفَ خِلافُ ذٰلِكَ منه إلا بِخَبَرِ الرَّسولِ، وإلا فهو جائِزٌ عليهِ.

وَهَذَا مِن أقْبَحِ الظَّنِّ وأسوئِهِ بالرَّبِّ سُبحانَه، وَتَنْزِيهُهُ عَنْهُ كَتَنْزيهِهِ عن الظُّلْمِ والجَوْرِ، بَلْ هذا هو عَيْنُ الظُّلْمِ الَّذِي يَتَعالى اللهُ عَنْهُ.

والعَجَبُ العُجابُ أنَّ كَثيرًا مِن أربابِ هَذَا المَذْهَبِ يُنَزِّهونَه عَمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَه مِن صِفاتِ الكَمالِ ونُعوتِ الجَلالِ، ويزعمون أن إثباتها تجسيمٌ وتشبيهٌ، ولا ينزِّهونه عن هذا الظُّلم والجَوْرِ، ويَزْعُمونَ أنَّهُ عَدْلٌ وَحَقٌّ، وأنَّ التَّوْحيدَ ـ عِندَهُم ـ لا يَتِمُّ إلا بِهِ، كما لا يَتِمُّ إلا بإنكارِ اسْتِوائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وعُلُوِّهِ فَوْقَ سَماواتِه، وتَكَلُّمِهِ وتَكْليمِهِ، وصِفاتِ كمالِه! فلا يَتِمُّ التَّوحيدُ عند هٰذِهِ الطَّائِفةِ إلا بِهَذَا النَّفْيِ وذَلِكَ الإثْباتِ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ»[1].

انتهى المقصودُ من نَقْلِهِ، وتَمامُ الكلامِ في هذا البابِ من ذَلِكَ الكِتابِ، وإليه سُبحانَه المآبُ.

---

(١) انظر: شفاء العليل (١٩٨-١٩٩).

الحادية والأربعون

الكُفرُ بالملائِكَةِ والرُسُلِ والتَّفريقُ بَيْنَهُم.

قالَ تَعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨٧-٩١].

إلى أن قال: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۞ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٩].

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذِهِ الآياتِ أنَّ بَعْضَ الكِتابِيِّينَ كانُوا يَكفُرونَ بِالمَلائِكَةِ والرُّسُلِ، يُفَرِّقونَ بَيْنَهُمْ، أيْ: يؤمِنونَ بِبَعْضٍ ويَكفُرونَ بِبَعضٍ، وهم طائفةٌ مِن جاهِلِيَّةِ اليَهودِ، وَلِهَذا أمَرَنا اللهُ تَعالى بالإيمانِ بهم وَعَدَمِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُم، فَقَالَ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الثانية والأربعون

الغُلُوُّ في الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السلام.

قالَ تَعالى في سورةِ «النِّساءِ» [١٧١]: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾.

وَالغُلُوُّ في المخلوقِ أعْظَمُ سَبَبٍ لعبادةِ الأصنامِ والصَّالِحينَ، كَما كانَ في قوم نوحٍ مِن عبادةِ نَسْرٍ وَسُواعٍ وَيَغوثَ ونَحْوِهِم، وكما كان مِنْ عبادةِ النَّصارى لِلمسيحِ عليه السلام.

ومِثْلُ ذٰلِكَ القولُ على اللهِ بِغيرِ الحَقِّ.

***

الثالثة والأربعون

الجِدالُ بِغيرِ عِلْمٍ.

كما تَرى كثيرا مِن أهلِ الجَهلِ يُجادِلونَ أهلَ العِلْمِ عِندَ نَهْيِهِم عَمَّا أَلِفوه مِنَ البِدَعِ والضَّلالاتِ، وهي صِفَةٌ جاهِلِيَّةٌ، نَهانا اللهُ تَعالى عَنِ التَّخَلُّقِ بِها.

قالَ تَعالى في سورةِ «آل عمران» [٦٥-٦٦]: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ * هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أَخْرَجَ ابنُ إسحاقَ وابنُ جَريرٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ تعالى عنهما قالَ:

«اجْتَمَعَتْ نَصارى نَجْرانَ وأحبارُ يهودَ عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَنازَعوا عِنْدَهُ، فَقالَتِ الأحبارُ: ما كانَ إبراهيمُ إلا يَهودِيّاً، وقالتِ النَّصارى: ما كان إبراهيمُ إلا نَصْرانِيّاً، فَأنْزَلَ اللهُ فيهم هٰذِهِ الآية» المُنادِيَةَ على جَهْلِهِم وعِنادِهِم، كَما لا يَخْفى على مَنْ راجَعَ التَّفْسيرَ.

***

قال الشيخ:

الرابعة والأربعون

الكَلامُ في الدِّين بِلا عِلْمٍ.

أقولُ: أجْمَلَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ تعالى الكَلام في هذهِ المسألةِ كُلَّ الإجمالِ، كَما فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ في كَثيرٍ مِنَ المَسائِلِ، وما أحَقَّها بِالتَّفْصيلِ.

وَذَلِكَ أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ مِنَ العَرَبِ وغيرِهِم مِنَ الكِتابِيِّينَ شَرَعوا في الدِّينِ ما لَم يَأْذَنْ بِهِ اللهُ:

أمَّا العَرَبُ فقد كانَ الكثيرُ مِنهُم على دين إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام إلى أنْ ظَهَرَ فِيهِمُ الخُزاعِيُّ فَغَيَّرَ وَبَدَّلَ، وابْتَدَعَ بِدَعاً كَثيرةً، وَأغْرى العَرَبَ عَلى عِبادَةِ الأصنامِ، وَبَحَرَ البَحيرَةَ، وَحَمى الحام، واسْتَقْسَمَ بِالأزلامِ، إلى غيرِ ذَلِكَ مِمَّا فَصَّلْناه في غيرِ هٰذَا الموضِعِ[١].

وإنْ شِئْتَ أنْ تَعْرِفَ جَهْلَ العَرَبِ، وما ابْتَدَعوهُ فاقْرأْ سورةَ «الأنعامِ» فَإنَّ فيها كَثيراً مِن ضَلالاتِهِم ومُبْتَدَعاتِهِم.

---

(١) انظر في ذلك صحيح البخاري: (المناقب/ قصة خزاعة: ٣٥٢٠ و٣٥٢١) و(التفسير/ المائدة: ٤٦٢٣).

وأمَّا الجاهِلِيُّونَ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، فَقَدِ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وَذلِكَ أنَّ أحبارَهم ورُهبانَهمُ ابْتَدَعوا لَهُم في الدِّينِ بِدَعاً، وَحَلَّلوا وَحَرَّموا ما اشْتَهَتْهُ أنفُسُهُم، فَقَبِلوا ذَلِكَ مِنهم وأطاعوهُم عليه، مع أنَّ الدِّينَ إنَّما يَكونُ بِتَشْريعِ اللهِ ووَحْيِهِ إلى أنْبيائِهِ ورُسُلِهِ، ولا يَكونُ بِآراءِ الرِّجالِ وبِحَسَبِ أهْوائِهِمْ، فَكُلُّ ما لا دَليلَ عَلَيْهِ مِنْ كِتابٍ ولا سُنَّةٍ مَرْدودٌ على صاحِبِهِ[1].

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعالى اليَهودَ عَلى مِثْلِ ذَلِكَ، فَقالَ ـ عَزَّ اسْمُهُ ـ في سورةِ «آلِ عِمرانَ» [٧٨]: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فَمَنْ أوَّلَ نُصوصَ الكِتابِ والسُّنَّةِ على حَسَبِ شَهَواتِهِ وبِمُقْتَضى هَواهُ فَهو ـ أيضاً ـ مِنْ قَبيلِ الذينَ يَلْوونَ ألْسِنَتَهُمْ بِالكِتابِ.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ ـ اليومَ ـ كَثيرٌ مِن كُتُبِ الشَّريعَةِ مِنَ الآراءِ التي لَيْسَ لَها مُسْتَنَدٌ مِنْ دَلائِلِ الشَّريعَةِ[2]، فإلى اللهِ المُشْتكى مِنْ صَوْلَةِ الباطِلِ، وخُمولِ الحَقِّ.

***

(١) عن عدي بن حاتم: أنه سمعَ النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلونه»، فقلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذي باختلاف في سننه: (تفسير القرآن/ ومن سورة التوبة: ٣٠٩٥) وحسَّنه الألباني كَلَلهُ.
فمن أطاع العلماء أو الأمراء في تحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرَّم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله؛ نسأل الله العافية.

(٢) وكذلك ما ورد الدليل ببطلانها ونفيها، بل بعضها مناقض لدين الإسلام، ففي بعضها يقول فيها من ألفها من الملاحدة: الكتاب والسنة من أصول الكفر، وبعضهم تنازل قليلاً فقال: ظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر.

الخامسة والأربعون

الكُفر باليومِ الآخِرِ، والتَّكذيبُ بِلقاءِ اللهِ، وبَعْثِ الأرْواحِ، وَبِبَعْضِ ما ذَكَرَتْهُ الرُّسُلُ مِنْ صِفاتِ الجَنَّةِ والنَّارِ.

قالَ تَعالى في سورةِ «الكَهْفِ» [١٠٣-١٠٥]: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ الآية، وقد مَرَّ الكَلامُ عَلَيها قَريبًا.

وَقَالَ تَعالى في سورةِ «النَّحْلِ» [٣٨-٣٩]: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾.

إلَى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ النُّصوصِ الوارِدَةِ في ذَلِكَ كُلِّهِ.

ولِقوم عَصْرِنا مِنْ هذا الاعْتِقادِ الجاهِلِيِّ حَظٌّ وافِرٌ، وَنَصيبٌ كامِلٌ، و ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، نَسْأَلُهُ تَعالى التَّوْفيقَ للهِدايةِ.

***

السادسة والأربعون

التَّكذيبُ بِقَولِهِ تَعَالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وَهو اليومُ الذي يَدينُ اللهُ تَعالى العِبادَ فِيْهِ بِأعمالِهِم، فَيُثيبُهُمْ عَلَى الخَيْراتِ ويُعاقِبُهُم على المَعاصِي والسَّيِّئاتِ.

والتَّكذيبُ بِهذا اليومِ مُتَفَرِّعٌ عَلى إنكارِ البعثِ والحِسابِ والجَنَّةِ والنَّارِ.

* * *

السابعة والأربعون

التَّكذيبُ بِقَولِهِ تَعَالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

مِنْ قَوْلِهِ سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

والخُلَّةُ: المَوَدَّةُ والصَّداقَةُ.

ومَعْنى ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾، أيْ: لا أحَدَ يَشْفَعُ لأحَدٍ إلا مِن بَعْدِ أنْ يَأْذَنَ الرَّحْمٰنُ لِمَنْ يَشاءُ ويَرْضى.

وأرادَ بِذَلِكَ يومَ القِيامَةِ.

والمُرادُ مِن وصْفِهِ بما ذُكِرَ: الإشارةُ إلى أنَّه لا قدرةَ لأحَدٍ فيهِ على تَحصيلِ ما يَنْتَفِعُ بِهِ بوجْهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ لأنَّ مَن في ذِمَّتِه حَقٌّ ـ مَثَلاً ـ إمَّا أنْ يأخُذَ بالبيعِ ما يُؤَدِّيهِ بِهِ، وإمَّا أنْ يُعينَهُ أصدقاؤُه، وإمَّا أنْ يَلْتَجِىءَ إلى مَنْ يَشفعُ لَهُ في حَطِّه[1]، والكُلُّ مُنْتَفٍ، ولا مُسْتعانَ إلاّ باللهِ ﷻ.

* * *

(١) في الأصل حظه، ولعل الصواب ما أثبته.

الثامنة والأربعون

التَّكذيبُ بِقولِهِ تَعالى في سورةِ «الزُّخْرُفِ» [٨٦]: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قَولُهُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، أيْ: ولا يملكُ آلِهَتُهُمُ الذين يَدْعونَهم مِن دونِهِ الشَّفاعَةَ، كَما زَعَموا أنَّهم شُفعاؤُهُم عِندَ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الَّذي هو التَّوحيدُ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: يَعْلَمونَهُ، والمُرادُ بِهِم: الملائِكَةُ وَعِيسى وعُزَيْرٌ وَأَضْرابُهُمْ.

وَأَنْتَ تَرَى النَّاسَ اليومَ عاكِفينَ على أصنامٍ لهُمْ يَدْعونَهُمْ مِن دونِ اللهِ، وعُذْرُهُم عِندَ تَوبيخِهِم أنَّ هؤلاءِ شُفَعاؤُهم -تَعالى اللهُ عَمَّا يُشْرِكونَ-.

***

التاسعة والأربعون

قَتْلُ اولياءِ اللهِ، وقَتْلُ الذينَ يَأْمُرونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ.

قالَ تعالى في سورةِ «البَقَرة» [٦١]: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾.

وقالَ في سورةِ «آلِ عِمرانَ» [١٨٣]: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

إلى آياتٍ أُخَرَ في هذا المَعْنى صَرَّحَتْ بِما لاقاهُ الأنْبياءُ والرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتْباعُهُم المُخْلِصونَ ودُعاةُ الحَقِّ، وبِما كابَدوهُ مِن أعداءِ اللهِ والجَهَلَةِ الطُّغاةِ، مِمَّا تَنهَدُّ لَهُ الصَّياصِي، وتَبْيَضُّ مِنْهُ النَّواصِي.

هؤلاءِ أكابِرُ الأمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ وَعُلَماؤُها الأعلامُ، قد صادَفوا عِندَ دَعوتِهِم إلى الحَقِّ والمُحافظَةِ عَلَيه ما يَسْوَدُّ منه وجهُ القِرْطاسِ، وتَشيبُ مِنه لِمَمُ المِدادِ.

والأنبياءُ ـ صلواتُ اللهِ عليهِم ـ وأتباعُهُم المُؤمنونَ ـ وإنْ كانوا يُبْتَلَوْنَ في أوَّلِ الأمْرِ ـ فالعاقِبَةُ لَهم، كما قالَ تَعالى لَمَّا قَصَّ قصةَ نوحٍ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

وفي الحَديثِ المُتَّفَقِ على صِحَّتِهِ لماأرسلَ النَّبيُّ ﷺ رسولاً إلى مَلِكِ الرُّومِ، فَطَلَبَ مَنْ يُخْبِرُهُ بسيرتِه ـ وكانَ المُشرِكونَ أعداءَهُ، لم يَكونوا آمَنوا بِهِ ـ فقالَ: «كيفَ الحربُ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُ؟ قالوا: الحَرْبُ بَيْنَنا وَبَيْنَهُ سِجالٌ، يُدالُ علينا المَرَّةَ، ونُدالُ عَليه الأخرَى. فقال: كذلكَ الرُّسُلُ تُبْتَلى، وتكونُ لها العاقِبَةُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد/ باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله: ٢٩٤١) ورواه مسلم في (الجهاد: ٤٦٠٧) كلاهما بألفاظ قريبة من هاهنا ولفظ البخاري أقرب إليه.

فإنّه كانَ يومُ بدرٍ نَصرَ اللهِ المُؤمنينَ، ثُمَّ يَوْمُ أُحُدٍ ابتُلِي المُؤمِنونَ، ثم لم يُنْصَرِ الكُفّارُ بَعْدَها، حتّى أظْهَرَ اللهُ تَعالى الإسْلامَ.

فإنْ قِيلَ: ففي الأنبياءِ مَن قد قُتِلَ، كما أخْبَرَ اللهُ تَعالى في الآيات السَّابقَةِ أنَّ بَني إسرائيلَ يَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بغيرِ الحَقِّ، وفي أهل الفُجورِ مَن يُؤتيهِ اللهُ مُلكًا وسُلْطاناً وَيُسَلِّطُهُ على المُتَدَيِّنِينَ كما سَلَّط بُخْتَ نَصَّرَ عَلى بَني إسرائيلَ، وكما سَلَّطَ كفّار المُشرِكينَ وأهلِ الكتابِ ـ أحياناً ـ على المُسْلِمينَ؟

قيلَ: أمَّا مَنْ قُتِلَ مِن الأنبياءِ فهم كمَنْ يُقْتَلُ مِنَ المُؤمنينَ في الجِهادِ شَهيداً.

قالَ تَعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ * فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

ومعلومٌ أنَّ مَنْ قُتِلَ مِنَ المُؤمنينَ شَهيداً في القتالِ، كان حالُه أكملَ من حالِ مَن يَموتُ حَتْفَ أنفِهِ.

قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التوبة: ٥٢]، أي: إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة.

ثُمَّ إنَّ الدِّينَ الذي قاتَلَ عليه الشُّهَداءُ يَنْتَصِرُ وَيَظْهَرُ، فَيَكون لِطائفتِه السَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ، مَن قُتِلَ مِنهم كان شهيداً، ومَن عاشَ مِنهم كانَ منصوراً سَعيداً، وهذا غايةُ ما يكونُ مِن النصْرِ، إذ كان الموتُ لا بُدَّ منهُ، فالموتُ على الوجهِ الذي تَحصُلُ به سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ أكملُ، بِخلافِ مَن يهلِكُ هو وطائفتُه، فلا يفوزُ لا هو ولا هم بمطلوبِهِم، لا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ.

والشُّهَداءُ مِن المؤمِنين قاتَلوا باختيارِهِم، وَفَعَلوا الأسبابَ التي بِها قُتِلوا، كالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنْكَرِ، فَهُمُ اختاروا هَذا المَوْتَ، إمَّا أنَّهم قَصَدوا الشَّهادَةَ، وإمَّا أنَّهم قَصَدوا به ما يَصيرونَ شُهَداءَ، عالِمينَ بأنَّ لهُم السَّعادةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وفي الدُّنيا بِانتصارِ طائِفَتِهِم، وبِبَقاءِ لِسانِ الصِّدقِ لهم ثَناءً ودُعاءً، بِخِلافِ مَن هَلَكَ مِن الكُفَّارِ، فإنَّهم هَلَكوا بِغيرِ اختِيارِهِم، هَلاكاً لا يرجونَ مَعه سَعادَةَ الآخِرةِ، ولم يَحصلْ لَهُمْ ولا لِطائِفَتِهِم شَيْءٌ مِن سعادةِ الدُّنيا، بَلْ أُتبعوا ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]، وَقيلَ فيهِمْ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

وقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ كثيراً مِن الأنبياء قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ، أيْ: أُلوفٌ كثيرةٌ، وأنَّهم ما ضَعُفوا ولا اسْتكانوا لِذَلِكَ، بلِ اسْتَغْفَروا مِنْ ذُنوبِهِم التي كانتْ سبباً لظُهورِ[١] العدوِّ، وأنَّ اللهَ تعالى آتاهُمْ ثَوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ، فإذا كان هذا قَتْلَ المُؤْمنينَ، فَما الظَّنُّ بِقتلِ الأنْبياءِ؟ ففيه لهم ولأتباعِهِم مِن سَعادةِ الدُّنيا والآخِرَةِ ما هو مِن أعظمِ الفَلاحِ.

وظُهورُ الكُفَّارِ على المُؤْمِنينَ - أحْياناً - هو بِسببِ ذُنوبِ المسلِمينَ، كيَومَ أُحُدٍ، فإنْ تابوا انْتَصَروا على الكُفَّارِ، وكانتِ العاقِبةُ لهم، كما قد جَرى مِثْلُ هَذَا لِلمُسْلِمينَ في عامَّةِ ملاحِمِهِم معَ الكفَّارِ.

وَهَذَا من آيات النُّبُوَّةِ وأعْلامِها ودَلائِلِها، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا قاموا بِعُهودِهِ ووَصاياهُ، نَصرَهُمُ اللهُ، وأظْهَرَهُمْ على المُخالِفينَ لَه، فإذا ضَيَّعوا عُهودَهُ ظَهَرَ أُولئِكَ عَليهم.

فمَدارُ النَّصْرِ والظُّهورِ مَعَ مُتابَعَةِ النَّبيِّ ﷺ وُجوداً وعَدَماً مِن غير سَبَبٍ يُزاحِمُ ذَلِكَ، ودورانُ الحُكْمِ مَعَ الوصفِ وجوداً وعدماً مِن غيرِ مزاحَمَةِ وصفٍ آخَرَ يوجِبُ

(١) في الأصل: بسبب ظهور، ولعل الصواب ما أثبته.

العِلْمَ بأنَّ المَدارَ عِلَّةٌ للدائِرِ، وقولُنا: «مِن غيرِ وصفٍ آخَرَ»: يُزيلُ النُّقوضَ الواردةَ.

فهذا الاستقراءُ والتَّتَبُّعُ يُبَيِّنُ أنَّ نَصْرَ اللهِ وإظهارَه هو بسببِ اتِّباعِ النَّبيِّ، وأنَّه سُبحانَه يُريدُ إعْلاءَ كَلِمَتِهِ وَنَصْرَه وَنَصْرَ أتْباعِهِ عَلى مَن خالَفَه، وأنْ يَجعلَ لهم السَّعادةَ ولِمَن خالَفَهم الشَّقاءَ، وهذا يوجِبُ العِلْمَ بِنُبوَّتِهِ، وأنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ كانَ سَعيداً، ومَن خالَفه كانَ شَقِيّاً.

ومن هذا ظُهورُ بُخْتَ نَصَّرَ على بَنِي إسرائيلَ، فإنَّه مِن دلائلِ نُبُوَّةِ موسى؛ إذ كانَ ظهورُ بُخْتَ نَصَّرَ إنَّما كانَ لَمَّا غَيَّروا عُهودَ موسى، وتَرَكوا اتِّباعَهُ، فعُوقِبوا بذَلِكَ، وكانوا ـ إذْ كانوا مُتَّبعينَ لِعُهودِ موسى ـ مَنصورينَ مُؤَيَّدينَ، كما كانوا في زَمَنِ داودَ وسُلَيْمانَ وغيرِهما.

قَالَ تَعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۞ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

فكانَ ظُهورُ بَني إسرائيلَ على عَدُوِّهِم تارةً، وظُهورُ عَدُوِّهِم عَلَيهم تارةً من دَلائِلِ نُبُوَّةِ موسى ﷺ وآياتِه، وكَذلِكَ ظُهورُ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ على عَدُوِّهم تارةً، وظُهورُ عَدُوِّهِم عليهم تارةً، هو من دلائِلِ رِسالةِ محمَّدٍ ﷺ وأعلامِ نُبُوَّتِه.

وكانَ نَصْرُ اللهِ لِموسى وقومِه على عَدُوِّهِم في حَياتِهِ وبَعْدَ مَوْتِهِ، كما جَرَى لَهُمْ مِنْ يوشَعَ وغيرِه من دَلائِلِ نُبُوَّةِ موسى، وكذلك انتِصارُ المؤمِنين مَعَ مُحمَّد ﷺ في حياتِه وبَعْدَ مماتِهِ مع خُلَفائِهِ مِن أعلامِ نبوَّتِه ودَلائِلها.

وهذا بِخِلافِ الكُفَّارِ الذين يَنْتَصِرونَ عَلى أهلِ الكِتابِ أحياناً، فإنَّ أولئكَ لا يكونُ مُطاعُهم إلى نَبِيٍّ، ولا يُقاتلونَ أتْباعَ الأنبياءِ على دِينٍ، ولا يَطلُبونَ مِن أولئكَ

أنْ يَتَّبِعوهُم على دِينِهم، بَلْ قَدْ يُصَرِّحونَ بأنَّا نُصِرْنا عَلَيكم بِذُنوبِكم، وأنْ لَوْ اتَّبَعْتُم دِيْنَكم لم نُنْصَرْ عَليكم.

وأيضاً فلا عاقِبَةَ لهم، بَلِ اللهُ يُهلِكُ الظَّالِمَ بالظَّالِمِ، ثُمَّ يَهلِكُ الظَّالِمينَ جميعًا، ولا قَتيلُهم يَطلبُ بِقَتْلِهِ سَعادةً بعدَ الموتِ، ولا يَختارونَ القَتْلَ لِيَسْعَدوا بعد المَوتِ.

فهذا وأمثالُه مِمَّا يُظهِرُ الفَرْقَ بَينَ انتِصارِ الأنبياءِ وأتْباعِهِم، وبَيْنَ ظُهورِ بعضِ الكفَّارِ على المُؤمِنينَ، أو ظُهورِ بعضِهِم على بعضٍ، ويُبَيِّنُ أنَّ ظُهورَ محمَّدٍ ﷺ وأُمَّتِهِ على أهلِ الكِتابِ: اليهودِ والنَّصارى، هو من جِنسِ ظُهورِهم على المُشرِكينَ: عَبَدَةِ الأوثانِ، وذلك مِن أعلامِ نُبُوَّتِهِ ودلائلِ رِسالَتِه، لَيس هو كَظُهورِ بُخْتَ نَصَّرَ على بني إسرائيلَ وظُهورِ الكُفَّارِ على المُسْلِمينَ.

وهذه الآيةُ مِمَّا أخبَرَ بِهِ موسى، وبَيَّنَ أنَّ الكذَّابَ المُدَّعي لِلنُّبُوَّةِ لا يَتِمُّ أمرُهُ، وإنما يَتِمُّ أمرُ الصَّادِقِ.

فإنَّ مِن أهلِ الكِتابِ مَن يَقولُ: مُحَمَّدٌ وأُمَّتُه سُلِّطوا عَلَيْنا بِذُنوبِنا مَعَ صِحَّةِ دِينِنا الذي نَحْنُ عَلَيْهِ، كَما سُلِّطَ بُخْتَ نَصَّرَ وغيرُه مِن المُلوكِ.

وهذا قِياسٌ فاسِدٌ، فإنَّ بُخْتَ نَصَّرَ لَم يَدَّعِ نُبُوَّةً، ولا قاتَلَ على دينٍ، ولا طَلَبَ مِن بني إسرائيلَ أنْ يَنْتَقِلوا عَن شَريعةِ موسى إلى شَريعتِهِ، فلم يَكن في ظُهورِهِ إتمامٌ لِما ادَّعاهُ مِن النُّبُوَّةِ وَدَعَا إلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، بَل كانَ بِمَنْزِلَةِ المُحارِبينَ قُطَّاعِ الطَّريقِ إذا ظَهَروا على القَوافِلِ، بِخِلافِ مَنِ ادَّعى نُبُوَّةً ودِيناً، ودَعا إليه، وَوَعَدَ أهلَه بِسعادَةِ الدُّنيا والآخِرةِ، وتَوَعَّدَ مُخالِفيهِ بِشَقاوةِ الدُّنيا والآخِرَةِ، ثُمَّ نَصَرَه اللهُ، وأظْهَرَهُ، وَأتَمَّ دِينَه، وأعْلى كَلِمَتَه، وَجَعَلَ لَهُ العاقِبَةَ، وَأذَلَّ مُخالِفيهِ.

فإنَّ هذا مِن جِنسِ خَرقِ العاداتِ المُقْتَرِنِ بِدَعوى النُّبُوَّةِ، فإنَّه دليلٌ عَلَيها.

وَقَدْ تَغْرَقُ في البَحْرِ أُمَمٌ كثيرةٌ، فلا يَكونُ ذَلِكَ دَليلاً على نُبُوَّةِ نَبيٍّ، بِخِلافِ غَرَقِ فِرْعَونَ وَقَومِهِ، فإنَّه كانَ آيةً بَيِّنَةً لموسى.

وهذا مُوافِقٌ لِما أخبَرَ بِهِ موسى ـ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ مِن أنَّ الكذَّابَ لا يَتِمُّ أمْرُهُ، وذَلِكَ بِأنَّ اللهَ حَكيمٌ لا يَليقُ بِهِ تأييدُ الكَذَّابِ على كَذِبِهِ مِن غَيْرِ أنْ يُبيِّنَ كَذِبَهُ.

ولِهذا أعْظَمُ الفِتَنِ: فِتْنَةُ الدَّجَّالِ الكَذَّابِ، لَمَّا اقْتَرَنَ بِدَعْواهُ الألوهِيَّةَ بعضُ الخَوارِقِ، كانَ مَعَه ما يَدُلُّ على كَذِبِهِ مِن وجوهٍ:

مِنها: دَعْواهُ الألوهِيَّةَ، وهو: «أعْوَرُ، واللهُ ليس بأعْوَرَ»، «مَكتوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كافِرٌ»، يَقْرَؤه كلُّ مُؤْمِنٍ قارِئٍ وغير قارِئٍ، واللهُ تَعالى لا يَراهُ أحَدٌ حَتَّى يموتَ، وقد ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ هذِهِ العَلاماتِ الثلاثَ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ[١].

فَأمَّا تَأْيِيدُ الكَذَّابِ، ونَصْرُهُ، وإظهارُ دعوتِه دائمًا، فهذا لم يَقَعْ قَطُّ، فَمَنْ يَستدلُّ على ما يَفْعَلُهُ الرَّبُّ سُبحانَه بالعادةِ والسُّنَّةِ، فهذا هو الواقعُ على ذلك ـ أيضاً ـ بالحِكمةِ، فحِكمتُه تُناقِضُ أنْ يفعلَ ذلكَ، إذ الحَكيمُ لا يَفعلُ هذا.

وقَدْ قَالَ تَعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣].

فَأخبَرَ أنَّ سُنَّةَ اللهِ التي لا تَبديلَ لَها: نصرُ المُؤمنينَ على الكافِرينَ.

والإيمانُ المُستَلزِمُ لِذَلِكَ يَتَضَمَّنُ طاعةَ اللهِ ورسولِهِ، فإذا نَقَصَ الإيمانُ بِالمَعاصي كانَ الأمْرُ بِحَسَبِهِ، كَما جَرَى يومَ أُحُدٍ.

وقَالَ تَعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ

---

(١) عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بَعَثَ اللهُ مِنْ نبيٍّ إلا أنذر قَوْمَهُ الأعورَ الكذاب، إنه أعوَرُ، وإنَّ ربكم ليس بأعورَ، مكتوبٌ بين عينيه كافِرٌ» رواه البخاري في (التوحيد/ قول الله تعالى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]: ٧٤٠٧) - واللفظ له - ورواه مسلم في (الفتن: ٧٣٦٣).
وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «مكتوبٌ بين عينيه كافرٌ، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ، كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ». وقال نبي الله ﷺ: «تعلموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربَّهُ عز وجل حتى يموتَ» رواهما مسلم في (الفتن: ٧٣٦٧ و ٧٣٥٦).

ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا) [فاطر: ٤٢-٤٣].

فَأَخبرَ أن الكفارَ لا يَنْظُرونَ إلا سُنَّةَ الأوَّلين، ولا يوجَد لِسُنَّةِ اللهِ تبديلٌ، لا تُبدَّلُ بغيرِها، ولا تَتَحوَّلُ، فكيفَ النَّصرُ لِلكُفَّارِ على المُؤمِنينَ الَّذين يَستَحِقُّونَ هذا الاسمَ؟

وكذلك قال في المنافِقينَ - وهم الكفَّارُ في الباطِن دونَ الظَّاهِرِ - وَمَنْ فيه شُعبةُ نِفاقٍ: (﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۞ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا) [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

والسُّنَّةُ هي العادةُ، فهذه عادةُ اللهِ المعلومةُ، فإذا نَصرَ مَن ادَّعى النُّبوَّةَ وأتباعَه على مَن خالَفَه، إمَّا ظاهِراً وإمَّا باطِناً نصراً مستقرّاً، فإنَّ ذَلِكَ دليلٌ على أنَّه نبيٌّ صادقٌ، إذ كانت سُنَّةُ اللهِ وعادتُه نصرَ المؤمنين بالأنبياء الصَّادقين على الكافرين والمنافقين، كما أنَّ سُنَّتَه تأييدُهم بالآيات البيِّنات، وهذه منها.

ومن ادَّعى النُّبُوَّةَ وهو كاذِبٌ، فهو مِنْ أكفرِ الكُفَّارِ وأظلَمِ الظَّالِمينَ:

قال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) [الأنعام: ٩٣].

وَقالَ تعالى: (﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ) [الزمر: ٣٢].

وَقالَ تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ) [العنكبوت: ٦٨].

وقالَ تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) [الأنعام: ١٤٤].

ومَنْ كانَ كَذَلِكَ، كانَ اللهُ يَمْقُتُهُ، ويُبغضه، ويُعاقِبُه، ولا يَدومُ أمرهُ، بَلْ هو كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في الحديثِ الصَّحيح عن أبي هريرةَ قالَ: «إنَّ اللهَ يُمْلي لِلظَّالِم، فإذا أخذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثُمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] [هود: ١٠٢]، وقال - أيضاً - في الحديث الصَّحيح عن أبي موسى أنّه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ المُؤمِنِ كَمَثَلِ الخامَةِ مِنَ الزَّرعِ، تُفيِّؤُها الرِّياحُ، تُقيمُها تارةً وتُميلُها أُخرى، وَمَثَلُ المُنافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأرْزِ، لا تَزالُ ثابِتَةً عَلى أصلِها، حَتَّى يكونَ انْجِعافُها مرَّةً واحدةً»[2].

فالكاذبُ الفاجرُ وإنْ عَظُمَتْ دَولتُهُ، فلا بُدَّ من زوالِها بالكُلِّيَّةِ، وبقاءِ ذَمِّهِ ولِسانِ السَّوْءِ لَه في العالَمِ، وهو يَظْهَرُ سَريعاً، ويَزولُ سَريعاً، كَدَوْلَةِ الأسودِ العنسيِّ، ومُسَيْلَمَةَ الكذَّابِ، والحارِثِ الدِّمَشقيِّ، وبابِكِ الخُرَّمِيِّ ونحوِهِم.

وأمَّا الأنبياءُ، فإنَّهم يُبْتَلَونَ كثيرًا لِيُمَحَّصوا بالبَلاءِ، فإنَّ اللهَ تَعالى يُمَكِّنُ لِلْعَبْدِ إذا ابْتلاهُ، ويُظْهِرُ أمرَه شَيئاً فشيئاً، كالزَّرع، قال تَعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، أي: فِراخَهُ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾، أي: قوّاهُ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

ولِهذا كان أوَّلَ مَن يَتْبَعُهُمْ ضُعفاءُ النَّاسِ باعْتِبارِ هذه الأمورِ.

وسُنَّةُ اللهِ في أنبياءِ اللهِ وأوليائِه الصَّادقين وفي أعداء اللهِ والمُتَنَبِّين الكذَّابين مِمَّا يوجِبُ الفرقَ بين النَّوعَين، وبَيْنَ دَلائِلِ النَّبيِّ الصَّادقِ ودَلائِلِ المُتَنبي الكذَّابِ.

وقد ذُكِرَ ابتلاءُ النَّبيِّ والمؤمنينَ ثُمَّ كَونُ العاقِبَةِ لهم في غيرِ موضِعٍ:

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير/ سورة هود: ٤٦٨٦)، ومسلم في (البر: ٦٥٨١) واللفظ له، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه مسلم في (صفات المنافقين: ٧٠٩٥) بلفظ قريب مما ذكر هنا.

كقولِهِ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩-١١١].

والمقصودُ أن إيذاءَ القائمينَ بالحَقِّ، والنَّاصِرينَ له مِن سَنَنِ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ، وكَثيرٌ مِن أهلِ عصرِنا على ذلك، واللهُ المُستَعانُ.

* * *

الخمسون

الإيمانُ بِالجِبْتِ والطَّاغوتِ، وتَفْضيلُ المُشرِكينَ على المُسْلِمينَ.

قال تَعالى في سورةِ «النِّساء» [٥١]: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾.

هَذِهِ الآيةُ نَزَلَت في حُيَيِّ بنِ أخطَبَ وكَعْبِ بنِ الأشرَفِ في جَمعٍ مِن يهودَ، وذلك أنَّهم خَرَجوا إلى مَكَّةَ بَعْدَ وقْعَةِ أُحُدٍ؛ لِيُحالِفوا قُريشاً على رسولِ اللهِ ﷺ، وَيَنْقُضوا العَهْدَ الذي بَيْنَهم وبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَزَلَ كعبٌ على أبي سُفيانَ، فَأحْسَنَ مَثْواهُ، وَنَزَلَتِ اليهودُ في دورِ قُرَيْشٍ، فقالَ أهلُ مَكَّةَ: أنتُمْ أهلُ كِتابٍ، ومحمَّدٌ ﷺ صاحبُ كِتابٍ، فلا يُؤْمَنُ هذا أنْ يكونَ مَكْرًا مِنْكُمْ، فإنْ أرَدْتَ أنْ نَخْرُجَ معَكَ، فَاسْجُدْ لِهٰذينِ الصَّنَمَينِ وآمِنْ بِهِما، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ كعبٌ: يا أهلَ مَكَّةَ! لِيَجِيءْ مِنكم ثلاثونَ ومِنَّا ثلاثونَ، فَنُلْزِقْ أكبادَنا بالكعبةِ، فنعاهِدْ ربَّ البيتِ لَنَجْهَدَنَّ على قِتالِ مُحَمَّدٍ، ففعَلوا ذلك، فَلَمَّا فَرَغُوا قال أبو سُفيانَ لِكَعبٍ: إنَّك امرؤٌ تَقرأُ الكتابَ وتَعْلَمُ، ونحنُ أُمِّيُّون لا نَعلمُ، فَأيُّنا أهْدى طَرِيقًا وأقرَبُ إلى الحَقِّ: أنَحْنُ أمْ مُحمَّدٌ؟ قال كعبٌ: اعرِضوا عليَّ دِينَكم، فَقالَ أبو سُفيانَ: نَحنُ نَنحَرُ لِلْحَجيجِ الكَوْماءَ[١]، ونَسْقِيهِمُ اللَّبَنَ، ونَقْري الضَّيفَ، ونَفُكُّ العانِيَ، ونَصِلُ الرَّحِمَ، ونَعْمُرُ بيتَ رَبِّنا، وَنَطوفُ بِهِ، وَنَحْنُ أهلُ الحَرَمِ، ومحمَّدٌ فارَقَ دِينَ آبائِهِ، وَقَطَعَ الرَّحِمَ، ودينُنا القديمُ، ودينُ محمَّدٍ الحديثُ، فَقال كَعبٌ: أنتُمْ واللهِ أهدى سَبيلاً مِمَّا عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ، فَأنْزَلَ اللهُ في ذلكَ الآياتِ[٢].

والجِبْتُ في الأصلِ: اسمُ صَنَمٍ، فاستُعْمِلَ في كُلِّ مَعْبودٍ غَيْرِ اللهِ.

---

(١) الكوماء: الناقة عظيمة السنام. انظر: لسان العرب «كوم».

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/١٢٣)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢/٥٩)،، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٩٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢٥١).

والطَّاغوتُ: يُطْلَقُ على كُلِّ باطِلٍ مِنْ معبودٍ أو غَيْرِهِ.

ومَعْنى الإيمانِ بِهِما: إمَّا التَّصْديقُ بأنَّهُما آلهةٌ، وإشراكُهُما بِالعِبادةِ مَعَ اللهِ تَعالى، وإمَّا طاعَتُهُما وموافَقَتُهُما على ما هُما عَلَيْهِ مِنَ الباطِلِ، وإمَّا القَدْرُ المُشْتَرَكُ بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ كالتَّعْظِيمِ - مَثلاً.

والمُتَبادِرُ المَعْنَى الأوَّلُ، أيْ أنَّهُم يُصَدِّقونَ بِأُلوهِيَّةِ هذيْنِ الباطِلَيْنِ، وَيُشْرِكونَهما في العِبادةِ مَعَ الإلٰهِ الحَقِّ، وَيَسْجُدونَ لَهُما[1].

***

(١) قال عمر: الجبتُ السحر، والطاغوت: الشيطان. ذكره البخاري في صحيحه تعليقًا في (كتاب التفسير/ باب: قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣]: قبل رقم ٤٥٨٣) فكل من عبد غير الله، فالداعي هو الشيطان، فيكون الشيطان هو المعبود لأنهم عبدوا غير الله، بأمر الشيطان وتزيينه، والعياذ بالله تعالى.

الحادية والخمسون

لبْسُ الحَقِّ بِالباطِلِ، وَكِتمانُهُ.

قَالَ تَعالى في سورةِ «آل عِمرانَ» [٧١]: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وفي المُرادِ أقوالٌ:

أَحَدُها: أنَّ المُرادَ تحريفُهُم التَّوراةَ والإنجيلَ.

ثانِيها: أنَّ المُرادَ إظهارُهُم الإسلامَ، وإبطانُهُم النِّفاقَ.

ثالِثُها: أنَّ المُرادَ الإيمانُ بِموسى وَعِيسى، والكُفرُ بِمُحَمَّدٍ عليه السلام.

وَرابِعُها: أنَّ المُرادَ ما يَعْلَمونَه في قُلوبِهِم مِن حَقيقةِ رِسالتِهِ ﷺ، وما يُظْهِرونَه مِن تَكْذيبِهِ[١].

***

(١) انظر الأقوال الأربعة في «روح المعاني» (٣/ ١٩٩).
قال ابن كثير في «تفسيره» أي: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ، وأنتم تعرفون ذلك، وتتحققونه.

الثانية والخمسون

التَّعَصُّبُ لِلْمَذهَبِ، والإقرارُ بالحَقِّ لِلتَّوَصُّلِ إلى دَفْعِهِ.

قَالَ تَعَالى في سورةِ «آلِ عِمرانَ» [٧٢-٧٤]: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

قالَ الحسنُ والسُّدِّيُّ: تَواطَأَ اثنا عَشَرَ رَجُلاً مِن أحبارِ يَهودِ خَيْبَرَ وقُرى عَرينٍ، وقال بعضُهُم لِبَعْضٍ: ادْخُلوا في دِينِ مُحَمَّدٍ أَوَّلَ النَّهارِ بالِّلسانِ دونَ الاعتقادِ، واكفُروا آخِرَ النَّهارِ، وقولوا: إنَّا نَظَرْنا في كُتُبِنا، وشاوَرْنا عُلَماءَنا، فَوَجَدْنا مُحَمَّداً ليس بِذاكَ، وظَهَرَ لنا كَذِبُهُ، وبُطلانُ دِينِه، فإذا فَعَلْتُم ذلك شَكَّ أصحابُه في دِينِهم، وقالوا: إنَّهم أهلُ كِتابٍ، وهُم أعْلَمُ بِهِ، فَيَرجِعونَ عن دِينِهم إلى دِينِكم[١].

***

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٣١١).

الثالثة والخمسون

تسمِيَةُ اتِّباعِ الإسلامِ شِرْكًا.

قَالَ تَعَالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

أخرجَ ابنُ إسحاقَ بِسَنَدِهِ: حِينَ اجْتَمَعَتِ الأحْبارُ مِنَ اليهودِ والنَّصارى من أهلِ نَجرانَ عِنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، وَدَعاهُم إلى الإسلامِ، قالوا: أتُريدُ يا محمدُ أنْ نَعْبُدَكَ كَما تَعْبُدُ النَّصارى عِيسى بنَ مَرْيَمَ؟ فقالَ رَجُلٌ مِن أهلِ نَجْرانَ نَصْرانِيٌّ يُقالُ لَهُ الرَّئيسُ: أوَ ذاكَ تُريدُ مِنَّا يا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَعاذَ اللهِ أنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أوْ نَأْمُرَ بِعِبادَةِ غيرِهِ، وما بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلاَ بِذَلِكَ أَمَرَني»، فَأنْزَلَ اللهُ تَعالى هَذِهِ الآيةَ[1].

***

(١) قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع: حين اجتمعت... الحديث. ذكره ابن كثير في «تفسيره».

الرابعة والخمسون

تَحْرِيفُ الكَلِمِ عَنْ مواضِعِهِ، وَلَيُّ الألْسِنَةِ بِالكِتابِ.

قَالَ تَعالى في سورةِ «آل عِمرانَ» [٧٨]: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

رُوِيَ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في اليهودِ والنَّصارى جَميعاً، وَذٰلِكَ أنَّهم حرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ، وَألْحَقوا بِكِتابِ اللهِ تَعالى ما لَيْسَ مِنْهُ.

واخْتَلَفَ النَّاسُ في أنَّ المحرَّفَ هَلْ كان يُكْتَبُ في التَّوراةِ أمْ لا؟ فَذَهَبَ جَمْعٌ إلى أنَّه لَيْس في التَّوراةِ سِوى كلامِ اللهِ تَعالى، وأنَّ تَحْريفَ اليهودِ لم يَكُنْ إلا تَغْييراً وَقْتَ القِراءَةِ، وتأويلاً باطِلاً للنُّصوصِ، وأمَّا أنَّهم يَكْتُبون ما يَرومونَ في التَّوراةِ على تَعَدُّدِ نُسَخِها فَلا.

واحْتَجُّوا لِذَلِكَ بِمَا رُوِيَ أنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ كما أنْزَلَهُما اللهُ تَعالى لم يُغَيَّرْ منهما حَرْفٌ، وَلَكِنَّهُم يُضِلُّونَ بِالتَّحْريفِ والتَّأويلِ وَكُتُبٍ كانوا يَكْتُبونَها مِن عِندِ أنْفُسِهِم، وَيقولونَ: إنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وما هو مِنْ عِندِ اللهِ، فأمَّا كُتُبُ اللهِ تَعالى فإنَّها مَحْفوظَةٌ لا تُحَوَّلُ.

وبأنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقولُ لِليهودِ إلزامًا لهم: «ائتوا بِالتَّوراةِ فَاتْلوها إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ»، وهم يَمْتَنِعونَ عن ذَلِكَ، فَلَو كانَتْ مُغَيَّرَةً إلى ما يُوافِقُ مَرامَهُمْ ما امْتَنَعوا، بَلْ وَمَا كانَ يقولُ لَهُم ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لأنَّهُ يَعودُ على مَطْلَبِهِ الشَّريفِ بالإبطالِ.

وَذَهَبَ آخَرُونَ إلى أنَّهُم بَدَّلوا، وَكَتَبُوا ذَلِكَ في نَفْسِ كِتابِهِم، واحْتَجُّوا على ذلك بكثيرٍ مِنَ الظَّواهِرِ.

ولا يَمْنَعُ مِن ذَلِكَ تَعَدُّدُ النُّسَخِ؛ لاحْتِمالِ التَّواطُؤِ، أو فُعِلَ ذَلِكَ فِي البَعْضِ دُونَ البَعْضِ، وكَذَلِكَ لا يَمْنَعُ مِنْه قَولُ الرَّسولِ لَهُمْ ذَلِكَ؛ لاحْتِمالِ عِلْمِهِ بِبقاءِ بَعضِ ما يَفِي بغَرَضِهِ سالِماً عَنِ التَّغْيِيرِ، إمَّا لِجَهلِهِم بوجْهِ دِلالَتِهِ، أو لِصَرْفِ اللهِ تَعالى إيَّاهُم عن تغْيِيرِهِ.

وتَمامُ الكَلامِ في تفسيرِ الجَدِّ عندَ الكلامِ على هَذِهِ الآيةِ، وكذا في «الجَوابِ الصَّحيح»[1] لشَيخِ الإسلامِ.

وكثيرٌ مِنَ الأمَّةِ المحمَّدِيَّةِ سَلَكوا مَسْلَكَ الكِتابِيِّينَ في التَّحريفِ، والتَّأويلِ، واتِّباعِ شَهَواتِهِم.

وقَالَ تَعالى في سورةِ «النِّساءِ» [٤٦]: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والكلامُ عَلَى هَذِهِ الآيةِ ـ أيضاً ـ مستوفىً في التَّفسيرِ.

***

(١) (٢/١٨-٢٨)، وانظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢/ ٣٥١-٣٥٤).

الخامسة والخمسون

تَلْقِيبُ أهلِ الهُدى بالصَّابئةِ والحَشْوِيَّةِ.

فَقَدْ كانَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ يُلَقِّبونَ مَن خَرجَ عن دينِهم بالصَّابىء، كما كانوا يُسَمُّون رَسُولَ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ، كما وَرَدَ فِي عِدَّةِ أحاديثَ مِن «صحيح البخاري» و«مسلم»[١] وغيرهما[٢]؛ تنفيراً للناسِ عنِ اتِّباعِ غيرِ سبيلِهِم.

وهكذا تَجِدُ كثيراً مِن هٰذِهِ الأمّةِ يُطْلِقونَ على مَن خالَفَهُمْ فِي بِدَعِهِم وأهْوائِهِم أسْماءً مكروهةً للناسِ.

والصَّابئةُ أمةٌ قديمةٌ على مذاهِبَ مختلفَةٍ، قَدْ تكَلَّمَ عَلَيْهَا أهلُ المَقالاتِ بِما لا مَزيدَ عَلَيْهِ.

وَأمَّا الحَشوِيَّةُ، فَهُمْ قَومٌ كانوا يَقولونَ بِجَوازِ وُرودِ ما لا مَعْنى لَهُ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ كالحُروفِ فِي أوائِلِ السُّوَرِ، وَكذا قَالَ بَعْضُهُمْ، وهُمُ الذينَ قالَ فيهِمُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ لَمَّا وَجَدَ قَوْلَهُمْ ساقِطاً، وَكانوا يَجْلِسونَ في حَلْقَتِهِ أمامَهُ: «رُدُّوا هَؤلاءِ إلى حَشا الحَلْقَةِ»، أيْ: جانِبِها.

وخُصومُ السَّلَفِيِّينَ يَرْمونَهُمْ بِهَذا الاسْمِ؛ تَنفيراً للنَّاسِ عَن اتِّباعِهِمْ والأخْذِ بِأقوالِهِمْ، حَيْثُ يَقولونَ في المُتَشابِهِ: لا ﴿يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

وَقَدْ أخطَأتِ اسْتُهُمُ الحُفْرَةَ، فَالسَّلَفُ لا يَقولونَ بِوُرودِ ما لا مَعْنى لَهُ لا في الكِتابِ ولا في السُّنَّةِ، بَلْ يَقولونَ في الاسْتِواءِ مَثَلاً: «الاسْتِواءُ غَيْرُ مَجهولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقولٍ، والإقْرارُ بِهِ إيمانٌ، والجُحودُ بِهِ كُفْرٌ».

---

(١) رواه البخاري في (المناقب/ قصة زمزم: ٣٥٢٢م) ومسلم في (فضائل الصحابة: ٦٣٥٩) وعندهما أنهم قالوا ذلك عن أبي ذر أيضاً رضي الله عنه، وقالوا ذلك عن عمر أيضاً فيما رواه البخاري في (مناقب الأنصار/ إسلام عمر بن الخطاب ﷺ: ٣٨٦٤ و ٣٨٦٥).

(٢) مثل أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢، و٤/ ٣٤١) والطبراني في «الكبير» (٤٥٨٢).

وَقَدْ أطالَ الكَلامَ في هٰذِهِ المَسْألَةِ شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ فِي كَثيرٍ مِنْ كُتُبِهِ[١]، وَلَخَّصَ ذَلِكَ فِي كِتابِهِ «جَوابُ أَهْلِ الإيمانِ في التَّفاضُلِ بَيْنَ آياتِ القُرْآنِ».

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَذْهَبِ السَّلَفِ وَمَذْهَبِ الحَشْوِيَّةِ، بأنَّ مَذْهَبَ الحَشْوِيَّةِ وُرودُ ما يَتَعَذَّرُ التَّوَصُّلُ إلى مَعْناهُ المُرادُ مُطْلَقًا، فالاسْتِواءُ ـ مَثَلًا ـ عِنْدَهُمْ لَهُ مَعْنى يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِمُجَرَّدِ سَماعِهِ كُلُّ مَنْ يَعْرِفُ المَوْضوعاتِ اللُّغَوِيَّةَ، إلا أنَّهُ غَيْرُ مُرادٍ؛ لأنَّهُ خِلافُ ما يَقْتَضيهِ دَليلُ العَقْلِ والنَّقْلِ، ومَعْنًى آخَرُ يَليقُ بِهِ ـ تَعالى ـ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ هو ﷻ.

وكَيْفَ يَكونُ مَذْهَبُ السَّلَفِ هو مَذْهَبَ الحَشْوِيَّةِ، وَقَدْ رأى الحَسَنُ البَصْرِيُّ الَّذي هو مِنْ أكابِرِ السَّلَفِ سُقوطَ قَوْلِ الحَشْوِيَّةِ، وَلَمْ يَرْضَ أنْ يَقْعُدَ قائلُهُ تُجاهَهُ؟!

والمَقْصودُ أنَّ أَهْلَ الباطِلِ مِنَ المُبْتَدِعَةِ رَمَوا أَهْلَ السُّنَّةِ والحَديثِ بِمِثْلِ هَذا اللَّقَبِ الخَبيثِ.

قالَ أبو مُحَمَّدٍ عبدُالله بنُ قُتَيْبَةَ في «تأويلِ مُخْتَلِفِ الأحاديثِ»: «إنَّ أصْحابَ البِدَعِ سَمَّوا أَهْلَ الحَديثِ بِالحَشْوِيَّةِ، والنَّابِتَةِ، والمُتَجَبِّرَةِ، والجَبْرِيَّةِ، وسَمَّوهُم الغُثاءَ، وهٰذِهِ كُلُّها أنبازٌ لَمْ يَأْتِ بِها خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ كما أتى:

في القَدَرِيَّةِ[٢] أنَّهُمْ «مَجوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إنْ[٣] مَرِضوا فَلا تَعودوهُمْ، وإنْ ماتوا فَلا تَشْهَدوا جَنائِزَهُمْ»[٤].

وفي الرَّافِضَةِ: «يَكونُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمانِ يُسَمَّوْنَ الرَّافِضَةِ، يَرْفُضونَ الإِسْلامَ،

---

(١) ومنها رسالة «الإكليل في المتشابه والتأويل»، و«الفرقان بين الحق والباطل» ضمن مجموع الفتاوى (١٣/ ١٤٣-١٤٧)، و«الرسالة التدمرية».

(٢) القدرية ليست طائفة مستقلة، وإنما تطلق على كل من نفى القدر.

(٣) في الأصل (فإن)، وفي سنن أبي داود (إن).

(٤) حسن بمجموع طرقه: رواه أبو داود في (السنة/ باب في القدر: ٤٦٩١).

وَيَلْفُظونَهُ، فاقتلوهم، فإنهم مشركون»(١).

وفي المرجئة: «صِنْفانِ مِنْ أُمَّتي لاتَنالُهُم شَفاعتي، لُعِنوا على لِسانِ سَبْعين نَبِيًّا: المُرْجِئَةُ والقَدَرِيَّةُ»(٢).

وفي الخوارج(٣): «يَمْرُقونَ مِنَ الإسلامِ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»(٤)، و«كِلابُ أَهْلِ النَّارِ»(٥).

هذِهِ أسماءٌ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ، وتِلْكَ أَسْماءٌ مَصْنوعَةٌ(٦)، انتهى.

وفي «الغُنْيَةِ» أنَّ الباطِنِيَّةَ تُسَمّي أهلَ الحديثِ «حَشْوِيَّةً» لِقولِهم بالأخبارِ وتَعَلُّقِهِم بالآثار(٧).

وفي كِتابِ «حُجَّةِ اللهِ البالِغَة»: «واسْتطالَ هؤلاءِ الخائِضونَ عَلى مَعْشَرِ أَهْلِ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٧٥) ح ٩٨١ وغيره.

(٢) لا يصح عن رسول الله ﷺ: قاله ابن الجوزي رحمه الله، وأخرجه في «العلل المتناهية» (١/ ١٥٦) برقم (٢٤٩) من حديث أنس، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٦١) ح ٩٤٩، من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظ: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: المرجئة والقدرية».

(٣) الخوارج: إحدى الفرق الضالة، نشأت قديمًا، وحذر النبي ﷺ من فتنتها، وحث على قتلهم، خرجوا على حين فرقة من المسلمين، ومنشؤهم التشدد والهوى، وصرف النصوص وتحريفها حسب هواهم، وهم طوائف كثيرون، يجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما وتكفير صاحب الكبيرة، والخروج على الإمام إذا فعل كبيرة.
انظر في شأنها: مقالات الإسلاميين (١/ ١٦٧)، وخبيئة الأكوان (ص ٥٧).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في (استتابة المرتدين/ من ترك قتال الخوارج للتألف: ٦٩٣٤) عن يسير بن عمرو قال قلت لسهل بن حُنيف: هل سمعت النبي ﷺ يقول في الخوارج شيئاً؟ قال: سمعته يقول: وأهوى بيده قِبَل العراقِ: «يخرجُ منه قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيَهُم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية»، وبرقم (٦٩٣٣ و ٣٦١٠ و٤٣٥١ و٥٠٥٨) بلفظ: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية». ورواه مسلم بهذا اللفظ في (الزكاة: ٢٤٦٢).

(٥) صحيح: أخرجه ابن ماجه في (السنة/ في ذكر الخوارج: ١٧٣) ولفظه عنده: «الخوارج كلاب النار»، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٨) رقم (٩٠٤)، وغيرهم.

(٦) «تأويل مختلف الحديث» (ص ٥٥).

(٧) «الغنية» لعبد القادر الجيلاني (١/ ٨٥).

الحديثِ، وسَمَّوْهُمْ مُجَسِّمَةً، ومُشَبِّهَةً، وقالوا: هُمُ المُتَسَتِّرونَ بِالبَلْكَفَةِ[(١)]، وَقَدْ وَضَحَ لَدَيَّ[(٢)] وُضوحًا بيِّنًا أنَّ اسْتِطالَتَهُمْ هَذِهِ ليستْ بِشَيْءٍ، وأنَّهم مُخْطِئونَ في مَقالَتِهِم[(٣)] رِوايةً وَدِرايةً، وخاطِئونَ في طَعْنِهِمْ أَئمَّةَ الهُدى»[(٤)] انتهى.

وَقَدْ قَالَ العَلاَّمَةُ ابنُ القَيِّمِ في «كافِيَتِهِ الشَّافِيَةِ»: «فَصْلٌ في تَلْقِيبِهِم أهلَ السُّنَّةِ بِالحَشْوِيَّةِ، وبيان مَنْ أَوْلى بِالوصفِ المَذمومِ في هذا اللَّقَبِ مِنَ الطَّائفَتَيْنِ، وَذِكْرِ أَوَّلِ مَنْ لَقَّبَ بِهِ أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ:

وَمِنَ العَجائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اقْتَدى ... بِالوَحْيِ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرآنِ
حَشْوِيَّةٌ يَعْنونَ حَشْواً في الوُجو ... دِ وفَضْلَةً في أُمَّةِ الإنْسانِ
وَيَظُنُّ جاهِلُهُمْ بِأَنَّهُمُ حَشَوْا ... رَبَّ العِبادِ بِداخِلِ الأكْوانِ
إذْ قَوْلُهُمْ فَوْقَ العِبادِ وَفي السَّما ... ءِ الرَّبُّ ذُو المَلَكوتِ والسُّلْطانِ
ظَنَّ الحَميرُ بأنَّ في لِلظَّرفِ والرَّحْـ ... ـمنُ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكانِ
وَاللهِ لَمْ يُسْمَعْ بِذَا مِنْ فِرْقَةٍ ... قَالَتْهُ في زَمَنٍ مِنَ الأزْمانِ
لا تَبْهَتوا أَهْلَ الحَديثِ بِهِ فَما ... ذَا قَولُهم تَبًّا لِذي البُهْتانِ
بَلْ قَوْلُهُمْ: إنَّ السَّماواتِ العُلى ... في كَفِّ خالِقِ هَذِهِ الأكْوانِ
حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرى في كَفِّ مُمْـ ... ـسِكِها تَعالى اللهُ ذُو السُّلْطانِ
أَتَرَوْنَهُ المَحصورَ بَعْدُ أمِ السَّما ... يا قَوْمَنا ارْتَدِعوا عَنِ العُدْوانِ
كَمْ ذا مُشَبِّهَةٌ وَكَمْ حَشْوِيَّةٌ ... فَالبَهْتُ لا يَخْفَى على الرَّحْمنِ
تَدْرونَ مَنْ سَمَّتْ شُيوخُكُمُ بِهَـ ... ـذَا الاسْمِ في الماضي مِنَ الأزْمانِ

---

(١) البلكفة: يعنون بها عبارة «بلا كيف»، وذلك أن المتبعين لرسول الله ﷺ وما كان عليه هو وأصحابه رضوان الله عليهم، يقولون مثلاً: نثبت استواء الله على العرش بمعنى أنه علا وارتفع، ولكن بلا كيف، فأتت عبارة بلكفة من عبارة «بلا كيف» هذه.

(٢) في «حجة الله البالغة»: «علي».

(٣) في الأصل «روايتهم»، وما أثبته «من حجة الله البالغة».

(٤) «حجة الله البالغة» لشاه ولي الله الدهلوي (١/ ٦٤).

سَمَّى بِهِ ابْنُ عُبَيْدٍ عَبْدَاللهِ ذا ... كَ ابنَ الخَلِيفةِ طارِدِ الشَّيطانِ[١]

فَوَرِثْتُمُ عَمْراً كَما وَرِثوا لِعَبْـ ... ـدِاللهِ أنَّى يَسْتوي الإرْثانِ

تَدْرونَ مَنْ أَولى بِهَذَا الاسمِ وَهْـ ... ـوَ مُناسِبٌ أَحْوالَه بِوزانِ

مَنْ قَدْ حَشا الأَوراقَ والأذهانَ مِنْ ... بِدَعٍ تُخالِفُ مقتضى القُرآنِ

هَذَا هو الحَشوِيُّ لا أهلُ الحَديـ ... ـثِ أئمَّةُ الإِسْلامِ والإِيمانِ

وَرَدوا عِذَابَ مَناهِلِ السُّنَنِ التي ... لَيْسَتْ زُبالَةُ هَذِهِ الأذهانِ

وورَدتُمُ القَلُّوطَ[٢] مَجرى كُلِّ ذِي الْـ ... أوساخِ والأقْذارِ والأنْتانِ

وَكَسِلْتُمُ أنْ تَصْعَدوا لِلْورْدِ مِن ... رأسِ الشَّريعةِ خَيْبَةَ الكَسْلانِ[٣]

وحاصِلُ هَذِهِ الأبياتِ أنَّ أعداءَ الحَقِّ وخُصومَ السُّنَّةِ وأضدادَ الكِتابِ والسُّنَّةِ يُلقِّبونَ سَلَفَ الأمَّةِ المُتَمَسِّكينَ بالكِتابِ والسُّنَّةِ بِلَقَبِ «الحَشْوِيَّةِ»:

فالخَواصُّ مِنْهُم يَقْصِدونَ بِهَذَا الاسْمِ أن المُسَمَّى بِهِ حَشْوٌ في الوُجودِ وفَضْلَةٌ في النَّاسِ، لا يُعْبأ بِهِمْ، ولا يُقامُ لَهُمْ وَزْنٌ؛ إذ لَمْ يَتَّبِعوا آراءَهُمُ الكاسِدَةَ، وأفكارَهُمُ الفاسِدَةَ.

وأمَّا العَوامُّ مِنْهُمْ فَيَظُنُّونَ أنَّ تَسْمِيَةَ السَّلَفِ بالحَشْوِيَّةِ لِقَوْلِهِمْ بالفَوْقِيَّةِ، وَكَوْنِ الإلهِ في السَّماءِ، بِمَعْنى أنَّهُمُ اعْتَقَدوا ـ وحاشاهُم ـ أنَّ اللهَ تَعالى حَشْوُ هَذَا الوُجودِ، وأنَّهُ داخِلَ الكَوْنِ ـ تَعالى اللهُ عَمَّا يَقولُ الظَّالِمونَ عُلُوَّاً كَبِيراً ـ. وهذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ عَلى أهْلِ الحَدِيْثِ.

عَلى أنَّ هذا القولَ لَم يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ[٤].

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٥٢٠)، حيث ذكر أنَّ عمرو بن عبيد سمى عبدالله بن عمر حشويًا.

(٢) قال ابن عيسى في شرح الكافية الشافية (٢/ ٨٦): «القلوط ـ بفتح القاف وتشديد اللام وبالطاء المهملة ـ هو نهر بدمشق الشام يحمل أقذار البلد وأوساخه وأنتانه، ويسمى في هذا الوقت: قليطًا بالتصغير».

(٣) «الكافية الشافية» (ص ١٠٨)، وبشرح العلامة ابن عيسى (٢/ ٧٩)، وبشرح د. محمد خليل هراس (١/ ٣٣٣-٣٣٥).

(٤) أما كونه تعالى في السماء فمما لا شك فيه، لأدلة كثيرة وكثيرة جداً، منها أنه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾=

وأعداءُ الحقِّ في عصرِنا هَذَا عَلَى هذا المَسْلَكِ الجاهِلِيِّ، فتَراهُمْ يَرْمونَ كُلَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ بِكُلِّ لَقَبٍ مَذْمومٍ بَيْنَ المُسْلِمينَ، واللهُ المُسْتَعانُ عَلَى ما يَصِفونَ.

* * *

السادسة والخمسون

افْتِراءُ الكَذِبِ عَلَى اللهِ، والتَّكْذيبُ بِالحَقِّ.

وَشواهِدُ هَذِهِ المَسألَةِ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ كثيرٌ، وهذا دَأْبُ المُخالِفينَ لِلدِّينِ المُبينِ، كاليهودِ والنَّصارى، يَدَّعونَ أنَّ ما هُمْ عَلَيْهِ هو الحَقُّ، وأنَّ اللهَ أمَرَهُم بِالتَّمَسُّكِ بِهِ، وأنَّ الدِّينَ المُبينَ ليس بِحَقٍّ، وأنَّ اللهَ تَعالى أمَرَهُم بِتَكْذيبِهِ، كُلُّ ذَلِكَ لاتِّباعِ أَسْلافِهِم، لا يَنْظُرونَ إلى الدَّليلِ، وهكذا أهلُ البِدَعِ والضَّلالاتِ يَعْتَقِدونَ بِدَعَهُم الحَقَّ، وأنَّ اللهَ أمَرَهُم بِها، وأنَّ ما عَلَيْه أهلُ الحَقِّ مُفْتَرىً، لا يُصَدِّقونَ بِهِ[١].

= [طه: ٥] ومعلوم أن العرش فوق السماء، فهو سقف الجنة، ومنها سؤال النبي ﷺ الجارية: «أين الله» قالت: «في السماء» كما في مسلم في (الصلاة: ١١٩٩)، بل قد ألف الحافظ الذهبي كتاباً كاملاً في إثبات العلو لله تعالى، وهو كتاب «العلو للعلي الغفار».

(١) وهذا دليل على هذه المسألة وهو ما رواه البخاري في (المناقب/ باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] : ٣٦٣٥) عن عبدالله بن عُمَر رضي الله عنهما: أن اليَهودَ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأةً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضَحُهُم ويجلَدون، فقال عبدالله بنُ سلام: كذبتم، إن فيها الرَّجمَ، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضَعَ أحدُهُم يده على آيةِ الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدكَ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسولُ الله ﷺ فرُجما، وعند مسلم في (الحدود: ٤٤٣٧) فقال ﷺ: «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا: نسوِّد وجوهَهُما ونحمِّلُهما، ونخالف بين وجوههما، ويطافُ بهما، قال: «فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين» فجاؤوا بها، فقرؤوها، حتى إذا ما مرُّوا بآية الرجم، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبدالله بن سلام ـ وهو مع رسول الله ﷺ ـ: مُرهُ فليَرْفَع يده، فرفعها، فإذا تحتَهَا آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما.

فأين هم من قولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] ؟!

ويأتي الكلام على هذه الآية في المسألة الثانية والستين.

وكُلٌّ يَدَّعِيْ وَصْلاً لِلَيْلى ... وَلَيْلى لا تُقِرُّ لَهُمْ بِذاكا

***

السابعة والخمسون

رميُ المؤمنينَ بطَلَبِ العُلُوِّ في الأرض.

قَالَ تَعالى في سورةِ «يُونُسَ» [٧٨]: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا الكلامُ مَسوقٌ لبيَانِ أنَّ موسى عليه السلام أَلْقَمَهُمُ الحَجَرَ، فانقَطَعوا عن الإتيانِ بِكلامٍ لَهُ تَعلُّقٌ بكلامِهِ عليه السلام فضلاً عَن الجَوابِ الصَّحيحِ، واضطُرُّوا إلى التَّشَبُّثِ بِذَيْلِ التَّقليدِ الذي هو دَأْبُ كُلِّ عاجِزٍ محجوجٍ، وَدَيْدَنُ كُلِّ معالجٍ لَجوجٍ.

على أنَّه اسْتِئْنافٌ وَقَعَ جَواباً عَمَّا قَبْلَه مِن كلامه عليه السلام على طَريقَةِ: قال موسى، كأنَّه قِيلَ: فَماذا قالوا لِموسى عليه السلام حِيْنَ قَالَ لَهُم ما قال؟ فقِيلَ: قالوا عاجِزينَ عن المُحاجَّةِ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أيْ: المُلكُ.

كَما رُوِيَ عَنْ مجاهِدٍ[١]، وَعَنِ الزَّجَّاجِ أنّه سُمِّيَ المُلْكُ كِبْرِياءَ، لأنَّه أكبرُ ما يُطْلَبُ مِن أمرِ الدُّنيا[٢].

فَكُلُّ مَن دعا إلى الحَقِّ رَماه مَن كان على المَسْلَكِ الجاهليِّ أنَّ قَصْدَه مِنَ الدَّعْوةِ طَلَبُ الرِّئاسَةِ والجاهِ، مِن غَيرِ أنْ يَنْظُروا إلى ما دَعا إليه، وما قَامَ عَلَيْهِ مِنَ البَراهِينِ.

***

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٣١٤).
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٩).

الثامنة والخمسون

رمْيُ المؤمِنينَ بالفسادِ في الأرضِ.

شاهِدُ هَذِهِ المَسْأَلَةِ آياتٌ كَثِيْرَةٌ، حاصِلُها أنَّ المخالِفينَ لَهُمْ مِنَ المؤمِنين مُفْسِدونَ فِي الأرضِ.

انظُرْ إلى قَولِهِم في أَوائِلِ سورةِ «البَقَرَةِ» [الآية: ١١] كَيْفَ ادَّعَوْا أنَّهم هُم مُصْلِحونَ، وقد رَدَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

وَهَكَذا من هو على شاكِلَةِ أولَئكَ، مِنَ الذينَ اسْتَحَلُّوا غَيَّهُمْ وتَمَكَّنَتْ بِدَعُهُمْ مِنْ قُلوبِهِمْ.

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا

نسأله تعالى أَنْ يُثَبِّتَ قُلوبنَا عَلى دِينِهِ القَوِيمِ، وأقدامَنا على الصِّراطِ المُستقيمِ[1].

***

(١) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].
يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أضمروه لموسى عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يفسدوا أهل رعيتك، ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يالله العجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون، ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قاله ابن كثير في «تفسيره».
وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فالمطلوب إذاً عند شدة الأذى من الحكام: الاستعانة بالله والصبر، حتى يجعل الله للمؤمنين المتقين مخرجًا، ويمكّن للمؤمنين في الأرض. انتهى نقلاً من «التفسير الوجيز» (ص ١٦٥).

التاسعة والخمسون

رمْيُ المؤمنينَ بِتَبْديلِ الدِّين.

قال تعالى في سورة «غافر» [٢٦]: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

اعتقدوا أنَّ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلالِ هو الدِّينُ الحقُّ، وَمَنْ أراد تَحْويلَهُمْ عَنِ اعْتِقادِهِمُ الكاسِدِ، وصَرْفَهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الغَيِّ، فَقَدْ أرادَ إخراجهُم من الدِّينِ، وإفسادًا في الأرْضِ.

وَهَكذَا دَيْدَنُ أَعْدَاءِ الحَقِّ في كُلِّ عَصْرٍ.

* * *

الستون

كَونُهُمْ إذا غُلِبوا بِالحُجَّةِ، فَزِعوا إلى السَّيفِ والشَّكْوى إلى المُلوكِ، وَدَعْوى احْتِقارِ السُّلْطانِ، وَتَحْويلِ الرَّعِيَّةِ عَنْ دِينِهِ.

قال تَعالى في سورةِ «الأعراف» [١٢٧]: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فانظُرْ إلى شَكْوى آلِ فِرْعونَ وَقَومِهِ إِلَيْهِ، وَتَحْريشِهِمْ إيَّاهُ عَلَى مُقاتَلَةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَهْييجِهِ، وَمَا ذُكِرَ في آخِرِ الآيةِ مِن احْتِقارِ ما كانوا عَلَيْهِ[١].

* * *

(١) قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

الحادية والستون

تناقضُ مَذهَبِهِمْ لَمَّا تَرَكوا الحَقَّ.

قال تعالى في سورة «ق» [٤-٥]: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

فَقولُهُ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إلخ، إضرابٌ أُتبِعَ الإضرابَ الأوَّلَ للدَّلالةِ على أنَّهم جاؤوا بِما هو أفظَعُ من تَعَجُّبِهِمْ، وهو التَّكذيبُ بالحَقِّ، الذي هو النُّبُوَّةُ الثَّابتةُ بالمُعْجزاتِ، في أوَّلِ وَهْلَةٍ، مِن غيرِ تَفَكُّرٍ ولا تَدَبُّرٍ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مُضطَرِبٍ، وَذلِكَ بسببِ نَفْيِهِمُ النُّبُوَّةَ عنِ البَشَرِ بِالكُلِّيَّةِ تارةً، وَزَعْمِهِمْ أنَّ اللَّائقَ بها أهلُ الجاهِ والمالِ كما يُنبِىءُ عَنهُ قَولُهُم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] تارةً أُخرى، وَزَعْمِهِمْ أنَّ النُّبُوَّةَ سِحرٌ مرَّةً أخرى، وأنَّها كِهانةٌ أخرى، حيثُ قالوا في النبيِّ ﷺ مَرَّةً: ساحرٌ، ومَرَّةً: كاهِنٌ، أوْ هو اختِلافُ حالِهِم ما بَيْنَ تَعَجُّبٍ مِنَ البَعْثِ واستبعادٍ لَهُ، وتكذيبٍ وَتَرَدُّدٍ فيه، أو قولُهم في القرآن: هو شِعْرٌ تارةً، وَهُو سِحرٌ أخرى[١].

وقال تَعالى في سورةِ «الذَّارياتِ» [٧-١١]: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾.

﴿ٱلْحُبُكِ﴾: جمع حَبيكَةٍ، كَطَريقَةٍ، أوْ حِباك، كَمِثال وَمُثُلٍ، والمرادُ بها إمَّا الطُّرُقُ المحسوسةُ التي تَسيرُ فيها الكَواكبُ، أو المعقولةُ التي تُدْرَكُ بالبَصيرةِ، وهي ما يدلُّ على وَحْدَةِ الصَّانعِ وقُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وحِكمتِهِ إذا تأمَّلَها النَّاظرُ.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾: أيْ: مُتَخالِفٍ، مُتَناقِضٍ في أمْرِ اللهِ ﷻ، حيثُ تقولونَ: إنَّه جلَّ شأنُهُ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وَتَقولونَ بصِحَّةِ عبادةِ الأصنامِ

(١) وهكذا فكل من ترك الهدى وقع في الهوى لا محالة، وكان أمره متناقضاً مضطرباً مختلطاً.

مَعَهُ سُبحانَه، وفي أمْرِ الرَّسولِ، فتَقولونَ تارةً: إنَّه مَجْنونٌ، وأُخرى: إنه ساحرٌ، ولا يَكونُ الساحِرُ إلا عاقلاً، وفي أمْرِ الحَشْرِ، فتَقولونَ تارةً: لا حَشْرَ ولا حَياةَ بَعْدَ المَوتِ أصلاً، وتَزعمونَ أُخرى أنَّ أصنامَكم شُفعاؤُكم عِندَ اللهِ تَعالى يومَ القيامةِ، إلى غيرِ ذلك من الأقوالِ المتخالفةِ فيما كُلِّفوا بالإيمانِ بِهِ.

وقولُهُ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: أيْ: يُصْرَفُ عَنِ الإيمانِ بما كُلِّفوا الإيمانَ بِهِ.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾: أيْ: الكذَّابونَ مِنْ أصحابِ القولِ المُخْتَلِفِ.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: الغمرةُ: الجَهلُ العظيمُ يَغمرُهُم وَيَشمَلُهُم شُمولَ الماءِ الغامرِ لِما فيْهِ، والسَّهو: الغَفْلَةُ.

وقال تَعالى في أواخرِ سورةِ «الأنعام» [١٥٩]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

هذه الآيةُ استئنافٌ لبيانِ أحوالِ أهلِ الكتابَيْنِ إثْرَ بيانِ حالِ المشركين، بناءً على ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ وقتادةَ: أنَّ الآيةَ نَزلَت في اليهودِ والنَّصارى.

أيْ: بَدَّدوا دِينَهم، وبعَّضوه، فتمسَّكَ بِكُلِّ بعضٍ منه فرقةٌ منهم.

﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾، أيْ: فِرَقاً تُشايعُ كُلُّ فِرْقَةٍ إماماً، وَتَتبَعُهُ، أيْ: تُقَوِّيهِ، وَتُظْهِرُ أمْرَهُ.

أخرجَ أبو داودَ والتِّرْمِذِيُّ عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْتَرَقَتِ اليهودُ على إحْدى وسَبْعينَ فِرْقَةً، كلُّهم في الهاوِيَةِ إلا واحدةً، وافْتَرَقَتِ النَّصارى على ثِنْتَيْنِ وسَبْعينَ فِرْقَةً، كلُّهُم في الهاوِيَةِ إلا واحدةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتي على ثَلاثٍ وَسَبْعينَ فِرْقَةً، كلُّهُم في الهاوِيَةِ إلا واحدةً».

واستثناءُ الواحدةِ مِن فِرَقِ كُلٍّ مِن أهلِ الكِتابَيْنِ إنَّما هو بالنَّظَرِ إلى العَصْرِ الماضي قَبْلَ النَّسْخِ، وأمَّا بَعْدَهُ؛ فالكُلُّ في الهاوِيَةِ، وإن اختلَفَتْ أسبابُ دُخولِهِم.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، أيْ: مِنَ السُّؤالِ عَنهم، والبَحْثِ عَن تَفَرُّقِهِمْ، أَوْ مِنْ عِقابِهِمْ، أَوْ أَنتَ بَرِيءٌ مِنْهم.

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: تَعليلٌ للنَّفيِ المذكورِ، أيْ: هو يَتَولَّى وَحْدَهُ أمرَهم: أُولاهُمْ وأُخراهُمْ، وَيُدَبِّرُهُ حَسْبَما تَقْتَضيهِ الحِكْمَةُ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ قَال: المُفَرِّقونَ: أَهْلُ البِدَعِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ:

فقد أخرج الحَكيمُ التِّرْمِذِيُّ وابنُ جَريرٍ والطَّبَرانيُّ وغيرُهم عن أبي هُرَيرةَ عَن النَّبيِّ ﷺ في قولِه سُبْحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ ﴾ إلخ: «هُمْ أَهْلُ البِدَعِ والأَهْواءِ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ»(١)

فَيكونُ الكلامُ ـ حِينَئِذٍ ـ استِئْنافاً لِبَيان حالِ المُبْتَدِعينَ، إِثْرَ بَيانِ حالِ المُشْرِكينَ، إشارةً إلى أنَّهم ليسوا مِنْهم بِبَعيدٍ.

والمقصودُ أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ سواءٌ كانوا أُمِّيِّينَ أوْ كِتابِيِّينَ قد فَرَّقوا دينَهم، وتَغايَروا في الاعتقادِ، فكانَ عُبَّادُ الأصنامِ كُلُّ قَومٍ لَهُم صَنَمٌ يَدينونَ لَهُ، وَلَهُمْ شرائعُ مُخْتَلِفَةٌ في عِبادتِها، وَمِنهم مَنْ كانَ يَعْبُدُ كَوْكَباً، ومِنهم مَنْ كانَ يَعْبُدُ الشَّمسَ، ومِنهم، ومِنهم، وكذلِكَ الكِتابِيُّونَ على ما بَيَّنَّا.

فالافْتِراقُ ناشِىءٌ عن الجَهْلِ، وإلا فالشَّريعةُ الحَقَّةُ في كُلِّ زمان لا تَعَدُّدَ فيها ولا اختِلافَ، ولذلك تَرى القُرآنَ يُوَحِّدُ الحَقَّ وَيُعَدِّدُ الباطِلَ:

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: لكن هذا إسناد لا يصحُّ، فإن عباد بن كثير متروك الحديث، ولم يختلق هذا الحديث، ولكنه وهم في رفعه، إ.هـ.

ثم قال بعد ذلك: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله ﴿ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣] وشرعه واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُواْ شِيَعٗا ﴾ أي: فرقًا كأهل الملل والنحل، وهي الأهواء والضلالات، فالله قد برأ رسوله مما هم فيه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ الآية [الشورى: ١٣]، إ.هـ.

قلت: معنى ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾، أي: بمخالفتهم له، واختلافهم فيه ﴿ وَكَانُواْ شِيَعٗا ﴾ فرقًا، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، وكل الفرق إلا الفرقة الناجية، وهي الملتزمة بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿ لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ ﴾ أي: أنت والرسل برءاء منها.. انتهى نقلاً عن «التفسير الوجيز على هامش الكتاب العزيز» (ص ١٥٠).

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فانظُرْ كيفَ أفْرَدَ النُّورَ الَّذي هو الحَقُّ، وَجَمَعَ الظُّلُماتِ التي هِيَ الباطِلُ والزَّيغُ، فَتَفَرِّقَةُ الآراءِ، والاخْتِلافُ في الاعتقادِ مِنْ خِصالِ الجاهِلِيَّةِ وما كان عَلَيْهِ أهلُ الباطِلِ، والاتفاقُ على العَقيدةِ الحَقَّةِ هو مِنْ دَأبِ أتْباعِ الرُّسُلِ والمُتَمَسِّكينَ بِما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى.

* * *

الثانية والستون

دعْوَاهُمُ العَمَلَ بِالْحَقِّ الَّذي عِنْدَهُمْ.

كَما قَالَ تَعالى في سورةِ «البَقَرَة» [٩١]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أيْ: نَسْتَمِرُّ على الإيمانِ بِالتَّوراةِ وما في حُكْمِها مِمَّا أُنْزِل لِتَقْريرِ حُكْمِها، ومُرادُهُم بِضَميرِ المُتَكَلِّمِ إمَّا أنبياءُ بني إسرائيلَ ـ وهو الظَّاهِر، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ عَدَمَ إيمانِهم بالقرآنِ كان بَغْياً وَحَسَداً على نُزولِهِ على مَنْ ليس مِنهم ـ وإمَّا أنْفُسُهُمْ، ومعنى الإنزالِ عليهم: تكْليفُهُم بما في المُنَزَّلِ مِنَ الأحكام.

وَذُمُّوا على هٰذِهِ المَقالةِ لِما فيها مِنَ التَّعْريضِ بِشأنِ القرآنِ، وَدَسائسُ اليهودِ مشهورةٌ، وتمامُ الكَلامِ في التَّفسير.[١]

* * *

(١) يكذب دعواهم العمل بالحق الذي عندهم، تركهم رجم الزاني مع اعترافهم أنه في كتابهم، كما يأتي في هامش ص (١٣٣).

وقد تقدم أيضاً في هامش المسألة السادسة والعشرين أنهم كفروا بعيسى عليه السلام وفي كتابهم التصديق به.

الثالثة والستون

الزِّيادةُ في العِبادةِ، كَفِعْلِهِمْ يَوْمَ عاشوراء[١].

***

(١) وهذه الخصلة الجاهلية لا تزال موجودة إلى يومنا هذا، فالبدع منتشرة في شرق العالم الإسلامي وغربه، وهي في تكاثر مستمر، حتى أصبح بعض المتسببين للعلم والمشيخة يخترعون ويبتدعون ما لم يأذن به الله، وصار هذا عائقاً كبيراً أمام من يريد معرفة الإسلام على وجهه الصحيح، كما جاء به رسول الله ﷺ، فاللهم أهدهم وأصلح قلوبهم.

أما بالنسبة لبدع يوم عاشوراء، فهي لا تزال مثل ضرب الرؤوس بالسيوف وجرحها، وإسالة الدماء، وضرب الظهور بالسلاسل ضرباً مبرحاً.

كما يوجد كثير من البدع في ذلك اليوم بعضها مستند إلى أحاديث واهية، وأكثرها ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهكذا الحل من نقص شيئاً من العبادة، فإنه فيه جاهلية، وكذلك من زاد في الدين، فالبدع والخرافات كلها من دين الجاهلية، ولو رآها أصحابها حسنة.

الرابعة والستون

النَّقصُ مِنْها، كَتَرْكِهِمْ الوُقوفَ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، أي: مِن عَرَفَةَ، لا مِنْ مُزْدَلِفَةَ[١].

والخطابُ عامٌّ، والمقصودُ إبطالُ ما كان عليه الحُمْسُ مِنَ الوُقوفِ بِجَمْعٍ.

فَقَدْ أخرجَ البُخاريُّ ومُسْلِمٌ عَن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: «كانتْ قُرَيشٌ ومَنْ دانَ دِينَها يَقِفونَ بالمُزْدَلِفَةِ، وكانوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ، وكان سائرُ العَرَبِ يَقِفونَ بعَرَفاتٍ، فَلَمَّا جاءَ الإسلامُ، أمرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يأتيَ عرفاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِها، ثُمَّ يُفيضَ مِنها، فَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾»[٢].

وَمَعْناها: ثُمَّ أفيضوا أيُّها الحُجَّاجُ مِنْ مَكانٍ أفاضَ جِنْسُ النَّاسِ مِنْهُ قَديماً وَحَديثاً، وَهو عَرَفَةُ، لا مِنْ مُزْدَلِفَةَ.

* * *

الخامسة والستون

تَعَبُّدُهُمْ بِتَرْكِ أَكْلِ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ، وَتَرْكِ زِينَةِ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ.

قال تعالى في سورةِ «الأعْرافِ» [٣١-٣٢]: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ

---

(١) فكانوا يتركون الوقوف بعرفة مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن ابتدعوا من عندهم الوقوف بمزدلفة، وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان الناسُ يُفيضون من عرفاتٍ، وكانت الحمس يفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نفيض إلا من الحرم، فلما نزلت ﴿أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ رجعوا إلى عرفات»، رواه مسلم في (الحج: ٢٩٥٥). وكان من توفيق الله تعالى لنبيه ﷺ قبل البعثة أنه كان يقف بعرفة مع الناس، كما رواه مسلم برقم (٢٩٥٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (التفسير/ سورة البقرة: ٤٥٢٠)، ومسلم في (الحج: ٢٩٥٤).

مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

وسببُ النُّزولِ ـ على ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاس ـ أنَّه كانَ أُناسٌ مِنَ الأعْرابِ يَطوفونَ بِالبيتِ عُراةً، حَتَّى إنْ كانتِ المرأةُ لَتَطوفُ بالبيتِ وهي عُريانةٌ، فَتُعَلِّقُ على سُفْلِها سُيُوراً مِثْلَ هذه السُّيورِ التي تكونُ على وَجْهِ الحُمُرِ من الذُّبابِ، وهي تقول:

اليومَ يَبدو بعضُه أوْ كُلُّه وما بَدا مِنه فَلا أُحِلُّه

فأنزل اللهُ تَعالى هذه الآية: (۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ) إلخ.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) مِمَّا طابَ لَكُمْ.

قال الكَلْبِيُّ: «كانَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ لا يأكلونَ مِنَ الطَّعامِ إلا قُوتاً، وَلاَ يَأكُلونَ دَسَمًا في أيّامِ حَجِّهِمْ، يُعَظِّمونَ بِذَلِكَ حَجَّهُمْ، فقال المُسْلِمونَ: يا رَسُولَ اللهِ! نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فأنزلَ اللهُ تَعالى الآيَةَ».

ومِنهُ يَظْهَرُ وَجهُ ذِكْرِ الأكْلِ والشُّرْبِ هُنا.

(وَلَا تُسْرِفُوٓا۟) بِتَحْريمِ الحَلالِ، كَما هو المُناسِبُ لِسَبَبِ النُّزولِ أَوْ بِالتَّعَدّي إلى الحَرامِ.

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ) مِنَ الثِّيابِ وكُلِّ ما يُتَجَمَّلُ بِهِ.

(وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ)، أيْ: مِنَ المُسْتَلَذّاتِ، وقيلَ: المُحَلَّلاتُ مِنَ المآكِلِ والمَشارِبِ، كَلَحْمِ الشّاةِ وَشَحْمِها وَلَبَنِها.

(قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)، أيْ: هِيَ لَهُمْ بِالأصالَةِ لِمَزيدِ كَرامَتِهِم على اللهِ تَعالى، وَالكَفَرَةُ ـ إنْ شاركوهُمْ فيها ـ فَبِالتَّبَعِ.

(خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ) لا يُشارِكُهُمْ فِيها غَيرُهُمْ.

السادسة والستون

تَعَبُّدُهُمْ بِالمُكاءِ وَالتَّصْدِيَةِ.

قال تعالى في سورةِ «الأنفالِ» [٣٥]: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

تفسيرُ هذه الآيةِ: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ ﴾، أي: المسجدِ الحرامِ، الذي صَدُّوا المسلمينَ عنهُ، والتَّعبيرُ عنه بِالبيتِ للاختصارِ مَعَ الإشارةِ إلى أنَّه بيتُ اللهِ، فينبغي أنْ يُعَظَّمَ بِالعِبادةِ، وَهُمْ لمْ يَفْعَلوا.

﴿ إِلَّا مُكَآءً ﴾، أي: صَفِيراً.

﴿ وَتَصْدِيَةً ﴾، أي: تَصفيقاً، وهو ضربُ اليدِ باليدِ بحَيثُ يُسْمَعُ له صوتٌ.

والمرادُ بالصَّلاةِ: إمَّا الدُّعاءُ، أو أفعالٌ أُخَرُ كانوا يفعلونها، ويُسمونها صلاةً، وحُمِلَ المُكاءُ والتَّصديةُ عليها بِتأويلِ ذلك بأنَّها لا فائدةَ فيها، ولا معنى لها، كَصَفيرِ الطُّيورِ، وتصفيقِ اللعِبِ.

وقد يُقالُ: المُرادُ أنَّهم وَضَعوا المُكاءَ والتَّصديةَ موضعَ الصَّلاةِ التي يَليقُ أنْ تَقَعَ عند البيتِ.

يُروى أنَّهم كانوا إذا أرادَ النَّبيُّ ﷺ أن يُصَلِّيَ، يَخْلِطونَ عليه بالصَّفيرِ والتَّصفيق[١].

ويروى أنهم يصلون ـ أيضاً ـ.

وَيُروى أنَّهم كانوا يَطوفونَ عُراةً: الرِّجالُ والنِّساءُ مُشَبِّكينَ بين أصابِعِهم،

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ٢٤١) عن ابن عمر، وذكره السيوطي في الدر المنثور، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد كما في الدر المنثور (٣/ ١٨٣).

يُصَفِّرونَ فيها، وَيُصَفِّقونَ(١).

وباقي الآيةِ معلومٌ.

والمقصودُ أنَّ مِثْلَ هذه الأفعالِ لا تكونُ عِبادةً، بَلْ مِن شعائرِ الجاهِلِيَّةِ.

فما يَفعلُه اليومَ بعضُ جهلةِ المسلِمينَ في المساجدِ مِن المُكاءِ والتَّصديةِ يَزعُمونَ أنَّهم يَذكُرون اللهَ، فهو مِن قَبيلِ فِعلِ الجاهِلِيَّةِ، وما أَحْسَنَ ما يقولُ القائلُ فِيهِم:

أقالَ اللهُ صَفِّقْ لي وَغَنِّ ... وَقُلْ كُفْرًا وَسَمِّ الكُفْرَ ذِكْرًا

وَقَدْ جَعَلَ الشَّارعُ صوتَ المَلاهي صوتَ الشَّيطانِ، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

***

السابعة والستون

دعواهُمُ الإيمانَ عندَ المؤمنينَ، فإذا خَرَجوا خرجوا بِالكُفْرِ الذي دَخلوا بِهِ(٢).

***

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ٢٤١) عن سعيد بن جبير.

(٢) كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١-٣].

وهذه حال كثير من الدعاة إلى الباطل، حيث تجده يفسد في الإسلام، مع ادعائه الحرص عليه وعلى أهله.

الثامنة والستون

دعاؤُهُمُ النَّاسَ إلى الضَّلالِ بِغَيرِ عِلمٍ(١).

التاسعة والستون

دعاؤُهُمُ النَّاسَ إلى الكُفْرِ مَعَ العِلْمِ(٢).

---

(١) كفعل النصارى، فإنهم لا علم عندهم، ومع ذلك يدعون إلى باطلهم، ويتعصبون له، وكأنه هو الحق، ولئن جاءهم كتاب من الله على لسان نبيهم عيسى عليه السلام، فإنه لم يلبث أن حُرِّف وغيِّر وبدل. ولأهل الضلال من الفرق الإسلامية في عصرنا من هذه الخصلة الجاهلية حظٌ وافرٌ، ونصيبٌ كاملٌ، و﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، فتراهم ـ مع انحرافهم عن الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم ـ ينشطون في بث باطلهم ودعاتهم شرقاً وغرباً، وينفقون على ذلك الأموال الطائلة.

وتجدهم مع ذلك متحمسين لباطلهم، مدافعين عنه، داعين الناس إليه، مع جهلهم بمنهج الفرقة الناجية، ألا وهي التي تكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. والله الموفق.

(٢) هذا كفعل يهود ومشركي قريش وفرعون، أما اليهود فإنهم يعلمون من كتبهم صدق نبوة النبي ﷺ، ومع ذلك يدعون الناس إلى مخالفته والكفر به، وتكذيبه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

أما مشركي قريش فقد كفروا عناداً ومكابرةً، وتجرؤوا إلى أن دعوا رسول الله ﷺ إلى الكفر بالله، وذلك بأن يعبد ما يعبدون، ويعبدون ما يعبد.

فعن ابن عباس: إن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً؛ فيكون أغنى رجلٍ بـ(مكة)، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطؤوا عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء؛ فإن لم تفعل؛ فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح. قال: «ما هي؟» قالوا: تعبد آلهتنا سنة: اللات والعزى، ونعبد إلهك سنة. قال: «حتى أنظر ما يأتي من عند ربي». فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦]. =

السبعون

المَكْرُ الكُبَّارُ: كَفِعْلِ قَوْمِ نوحٍ.

قال تعالى في سورةِ «نوح» عَلَيْهِ السَّلَامُ [٢٢-٢٤]: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾.

ومعنى الكُبَّارِ: الكبيرُ.

والمَكْرُ الكُبَّارُ: احتيالُهُم في الدِّين، وَصَدُّهُم لِلنَّاسِ عنه، وإغراؤُهم وتحريضُهم على أذيةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَهكذا فَعَلَ أخلافُ هؤلاءِ مِن مَرَدَةِ الدِّين، وَأتباعِ الهَوى وَعَبَدَةِ الدُّنْيا، يَفعلونَ مَعَ دُعاةِ الحَقِّ كما فَعَلَ قَوْمُ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ معَهُ، قد تَشابَهَتْ قُلوبُهُم، نسألُه تعالى أنْ يُعيذَ رِجالَ الحَقِّ مِن كَيدِ مِثْلِ هؤلاءِ الفَجَرَةِ، وَيَصُونَهُم مِن مَكْرِهِم.

وقَـدْ جَـرَّبْتُهُـمْ فَـرَأَيْـتُ مِنْهُـمْ خَبـائِـثَ بِـالمُهَيْمِـنِ نَسْتَجيـرُ

***

= أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٣٣١)، وابن أبي حاتم، والطبراني؛ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٤)، وإسناده حسن. كذا في «صحيح السيرة النبوية» (ص ٢٠٧).

وكذلك فعل فرعون، فإنه دعا قومه إلى الكفر بالله وبرسوله مع علمه بصدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] وقال له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] لكنه استمر على كفره وإضلاله غيره مع يقينه بصدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وكذب على قومه في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ومشابهوهم في هذا العصر كثير، وذلك أن أغلب دعاة الضلالة يعلمون أن الحق هو ما عليه المتمسكون بمنهاج الفرقة الناجية، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، ويستيقنون ذلك، ومع ذلك يدعون الناس إلى خلافه، ويشككونهم فيه؛ حسداً من عند أنفسهم، فإلى الله المشتكى، وهو المستعان.

الحادية والسبعون

ائمَّتُهُمْ: إمَّا عالِمٌ فاجِرٌ، وإمَّا عابِدٌ جاهِلٌ.

قالَ تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٩].

فذَكَرَ في الآيةِ أنَّ فَريقاً مِن أسْلافِ اليهودِ ـ وهم الأحبارُ ـ كانوا يَسْمَعونَ التَّوراةَ ويُؤوِّلونها تأويلاً فاسداً حسبَ أغراضِهم، بلْ كانوا يُحَرِّفونها بتبديلِ كلامٍ مِن تلقائِهم، كما فَعَلوا ذلِكَ في نَعْتِهِ ﷺ، فإنَّهُ رويَ أنَّهُ مِن صِفاتِهِ فيها أنَّهُ أبيضُ رَبْعَةٌ، فغَيَّروهُ بأسْمَرَ طويلٍ، وغَيَّروا آيةَ الرَّجمِ بالتَّسخيمِ وتَسْويدِ الوجهِ، كما في البخاريِّ.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ فريقٌ ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ إلا بالدَّعاوى الكاذبةِ، والمرادُ بِهِم جَهَلَةٌ مُقَلِّدَةٌ، لا إدراكَ لَهُمْ.

وتَمامُ الكلامِ في هذا المَقامِ يُطلَبُ مِنَ التَّفسيرِ.

والمقصودُ أنَّ تَحريفَ الكَلِمِ، واتِّباعَ الهَوى، والقولَ على اللهِ مِن غَيرِ عِلْمٍ مِن خِصالِ الجاهِلِيَّةِ.

وأنت تَعلمُ حالَ أحبارِ السُّوءِ اليومَ والرُّهبانِ الذينَ يقولونَ على اللهِ ما لا يُعْلَمُ قد تَجاوَزوا الحَدَّ في اتِّباعِ الهَوى، وتَأويلِ النُّصوصِ، وما أشبهَ ذلِكَ، مِمَّا يَسْتَحيي

منهُ الإسلامُ، والأمرُ للّهِ.

الثانية والسبعون

زَعْمُهُمْ أنهم أولياءُ للهِ مِن دونِ النَّاسِ.

دليلُ هذِهِ المسألةِ قولُه تَعالى في سورةِ «الجُمُعَة» [٦]: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾، أيْ: تَهَوَّدوا، أيْ: صاروا يهودًا.

﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، أي: أحِبَّاءُ لَه سُبْحانه، ولَمْ يُضِفْ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ إليْهِ تَعالى كما في قولِه سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢]؛ لِيُؤْذِنَ بالفَرْقِ بَيْنَ مُدَّعي الوِلايةِ وَمَن يَخُصُّهُ بها.

﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، أيْ: مُتَجاوِزينَ عنِ النَّاسِ.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾، أيْ: فَتَمَنَّوا مِنَ اللهِ أنْ يُميتَكُم، ويَنْقُلَكم مِن دار البَلِيَّةِ إلى مَحَلِّ الكَرامةِ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زَعْمِكُم، واثقِينَ بأنَّه حَقٌّ، فتَمَنَّوا الموتَ؛ فإنَّه مَن أيقَنَ أنَّهُ مِن أهلِ الجَنَّةِ أحبَّ أنْ يَتخلَّصَ إليها مِن هذه الدارِ التي هي قَرارةُ الأنكادِ والأكدارِ.

وأُمِرَ ﷺ أنْ يقولَ لَهُم ذَلِكَ إظهارًا لِكَذِبِهِم، فإنَّهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ويَدَّعونَ أنَّ الآخرةَ لَهُم عند اللهِ خالصةً، ويقولونَ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾؛ كما أخبرَ تَعالى عن الكتابيِّين في كتابه، فقال جل شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

ورُوِيَ أنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ؛ كَتَبَتْ يَهودُ المدينةِ ليهودِ خَيْبَرَ: إنِ اتَّبَعْتُم

محمَّدًا أطَعْناهُ، وإنْ خالفْتُموه خالَفْناه، فقالوا: نحنُ أبناءُ خليلِ الرحمٰنِ، ومنا عزيرٌ ابنُ اللهِ والأنبياءُ، ومتى كانتِ النُّبُوَّةُ في العَرَبِ؟! نحنُ أحَقُّ بها مِن مُحمَّدٍ، وَلا سَبيلَ إلى اتِّباعِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ الآية[١].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾: إخبارٌ بحالِهم المستقبَلِ، وهو عدمُ تمنيِّهم الموتَ، وَذٰلِكَ خاصٌّ بأولئكَ المخاطَبينَ.

وَروِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لَهم: «والَّذي نفسي بيدِهِ لا يقولُها أحَدٌ مِنكُم إلا غَصَّ بريقِهِ»، فَلَمْ يَتَمَنَّهُ أحدٌ مِنهم، وما ذٰلِكَ إلا لأنَّهم كانوا مُوقنينَ بصدقِه ﷺ، فَعَلِموا أنَّهم لو تَمَنَّوا لمَاتوا مِن ساعتِهم، وَلَحِقَهم الوعيدُ، وهذه إحدى المُعجزاتِ.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أيْ: بسببِه، كَأنَّهُ قيلَ: انْتَفَى تَمَنِّيهم بسببِ ما قَدَّمتْ، والمُرادُ بِما قَدَّمَتْهُ أيْديهِم: الكُفْرُ والمعاصي الموجِبةُ لدخولِ النَّارِ، وَلَمَّا كانت

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]، عن ابن عباس رضي الله عنه، يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ فسلوا الموت. وقال عبدالرزاق عن مَعْمَر، عن عبدالكريم الجزري، عن عكرمة، قوله ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا، إ. هـ. ثم ذكر أثراً عن ابن عباس: قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه. وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، إ. هـ.
فالمسألة على سبيل المباهلة، وليست كما ذكره الشيخ رحمه الله، قال ابن كثير رحمه الله: ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون أيها المسلمونَ أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم إ. هـ. ثم قال بعد: وسميت هذه المباهلة تمنيًا، لأن كل محقٍّ يودُّ لو أهلك الله المبطل المناظر له، لا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت. إ. هـ.

اليدُ مِن بينِ جوارحِ الإنسانِ مَناطَ عامَّةِ أفعالِه، عَبَّرَ بها تارةً عن النَّفسِ وأخرى عنِ القُدرةِ.

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ) أيْ: بِهِمْ، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ لِذَمِّهِمْ، والتسجيلِ عَلَيهِم بِأنَّهم ظالِمونَ في كُلِّ ما يأتونَ وَيَذَرونَ مِنَ الأمورِ الَّتي مِن جُمْلَتِها ادِّعاءُ ما هم عنه بِمَعْزِلٍ، أيْ: واللهُ عليمٌ بما صَدَرَ منهم من فُنونِ الظُّلمِ والمَعاصي، وَبِما سَيَكونُ مِنهم، فيجازيهم على ذَلِكَ.

(قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ) وَلا تَجسُرونَ عَلى أنْ تَمَنَّوْهُ مَخافَةَ أنْ تُؤخَذوا بِوَبالِ أفعالِكُمْ.

(فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ) البَتَّةَ، مِن غيرِ صارِفٍ يَلْويهِ، وَلا عاطِفٍ يَثْنيهِ.

(ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ) الذي لا تَخفى عَلَيْهِ خافيةٌ.

(فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) مِنَ الكُفرِ وَالمعاصي بِأنْ يُجازِيكم بِها.

وهذا دَيْدَنُ الزّائغينَ، وشأنُ الملحِدينَ، كما قالَ تَعالى عَنِ اليَهود: (نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ) [المائدة: ١٨].

وَقَدْ وَرِثَ هَذِهِ الخصلةَ كَثيرٌ مِمَّن يَنْتَمي إلى المِلَّةِ الإسلاميَّةِ، بَلْ كُلٌّ مِنَ الفِرَقِ يقول: نحنُ أَوْلِياءُ اللهِ، مَعَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ في حديثِ الفِرَقِ في بيانِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: «وهُمْ ما أنا عليهِ وأصحابي»[1].

***

(١) حسن: رواه الترمذي بلفظ: «ما أنا عليه وأصحابي» برقم (٢٦٤١). وقد تقدم ص (٥٠).

الثالثة والسبعون

دَعْواهم مَحَبَّةَ اللهِ مَعَ تَرْكِ شَرْعِهِ، فَطالَبَهُم سُبحانَه بِقولِهِ في سورةِ «آلِ عمرانَ» [٣١]: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال الحسن وابنُ جُرَيْجٍ: «زَعَمَ أقوامٌ عَلى عَهدِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهم يحِبُّونَ اللهَ، فقالوا: يا مُحَمَّدُ إنَّا نُحِبُّ ربَّنا، فأنزَلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ»[١].

وَرَوى الضَّحاكُ عنِ ابنِ عبَّاس قال: «وَقَفَ النَّبيُّ ﷺ على قريشٍ في المسجدِ الحرامِ، وقد نَصَبوا أصنامَهم، وَعَلَّقوا عَليها بَيْضَ النَّعام، وَجَعَلوا في آذانِها الشُّنوفَ[٢] وَهُم يَسجدونَ لها، فقالَ: «يا معشرَ قريشٍ، لَقد خالَفتُم مِلَّةَ أبيكم إبْراهيمَ وإسْماعيلَ، وَلَقَدْ كانا على الإسلامِ»، فَقالَتْ قُرَيشٌ: يا محمَّدُ! إنَّما نَعبدُ هذه حُبًّا لِلَّهِ؛ لِتقرِّبَنا إلى اللهِ زُلْفى، فأنزَلَ اللهُ تَعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ إلخ[٣].

وفي روايةِ أبي صالحٍ أنَّ اليهودَ لَمَّا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] أنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، فَلَمَّا نَزَلَت عَرَضَها رسولُ اللهِ ﷺ على اليهودِ، فَأبَوا أنْ يَقْبَلوها[٤].

وَرَوى محمَّدُ بنُ إسحاقَ عن محمَّدِ بن جَعفرِ بنِ الزُّبَيرِ قالَ: «نَزَلَت في نَصارى نَجرانَ، وَذَلِكَ أنَّهم قالوا: إنَّما نُعَظِّمُ المسيحَ، نَعْبُدُهُ حُبًّا لِلَّهِ، وتَعْظيمًا لَهُ، فأنزلَ اللهُ تَعالى هَذِهِ الآيَةَ رَدًّا عَلَيْهِم»[٥].

وَبِالجُمْلَةِ: مَنْ تَلَبَّسَ بالمعاصي لا يَنْبَغي لَهُ أنْ يَدَّعِيَ مَحَبَّةَ اللهِ، وَمَا أحْسَنَ قولَ القائلِ:

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٢٣٢).

(٢) جاء في حاشية المطبوع ما نصه: «الشنف: القرط الأعلى، أو معلاق في قوف الأذن، أو ما علق في أعلاها، جمعه شنوف، وما علق في أسفل الأذن: قرط».

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٣).

(٤) ذكر هذا الأثر الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٢٣٣) بنحوه.

تعصي الإلـه وأنـتَ تُظهِـرُ حُبَّـهُ هَذَا لَعَمْرِي[١] في القِياسِ بَديعُ
لـوْ كـانَ حُبُّكَ صـادِقًا لأطعْتَـهُ إنَّ المُحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطيـعُ

***

الرابعة والسبعون

تَمَنِّيهم على اللهِ تَعالى الأمانيَّ الكاذبةَ.

قال تعالى في سورةِ «آلِ عمرانَ» [٢٣-٢٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أخرج ابنُ إسحاقَ وجماعةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بيتَ المِدْراسِ على جماعةٍ من يهودَ، فدعاهم إلى الله تَعالى، فقال النُّعمانُ بنُ عمرٍو والحارثُ بنُ زيدٍ: على أيِّ دينٍ أنت يا محمَّدُ؟ فقال: «عَلى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ ودِينِهِ»، قالا: «فإنَّ إبراهيمَ كان يهوديًّا»، فقال لهما رسولُ اللهِ ﷺ: «فَهَلُمَّا إلى التَّوراةِ، فهي بينَنا وبينكُمْ، فأبَيَا عليه»، فأنزل اللهُ تَعالى هذِه الآيةَ».

وَفِي البَحْرِ: «زَنَى رجلٌ مِنَ اليهودِ بامرأةٍ، ولم يكن بعدُ في دِينِنا الرَّجمُ، فَتحاكَموا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ؛ تَخْفيفًا على الزَّانِيَيْنِ لِشَرَفِهما، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّما أحْكمُ بِكِتابِكُم»، فأنكروا الرَّجمَ، فَجِيءَ بِالتَّوراةِ، فَوَضعَ حَبْرُهُمُ ابنُ صُورِيا يَدَهُ عَلى آيةِ الرَّجم، فقال عبدُاللهِ بنُ سَلامٍ: جاوزَها يا رسولَ اللهِ،

---

(١) هذا قسم بغير الله، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي في (النذور والأيمان/ ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد أشرك: ١٥٣٥)، أما حلف الله بحياة نبيه في قوله ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالله يفعل ما يريد، ويقسم بما شاء، وفي الآية شرف عظيم للنبي ﷺ.
وفي ديوان الشافعي: ... هذا محال في القياس بديع، ص ٧٦، ط دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

فَأَظْهَرَها، فَرُجِما، فَغَضِبَتِ اليهودُ، فَنَزَلَتْ»[(١)].

ومَعنى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، أيْ: المذكورُ مِنَ التَّوَلِّي والإعْراضِ حاصِلٌ لَهُم بِسَبَبِ هَذَا القولِ الَّذِي رَسَّخَ اعتقادَهم بِهِ، وَهَوَّنوا بِهِ الخُطوبَ، وَلَمْ يُبالوا معهُ بارْتِكابِ المَعاصي والذُّنوب.

والمُرادُ بالأيَّامِ المَعدوداتِ: أيَّامُ عِبادتِهم العِجْلَ.

---

(١) روى القصة البخاري في صحيحه بالأرقام (١٣٢٩ - ٣٦٣٥ - ٤٥٥٦ - ٦٨١٩ - ٦٨٤١ - ٧٣٣٢ - ٧٥٤٣)، ومسلم برقم (٤٤٢٧ و٤٤٤٠) وقد تقدمت ص (١١٢).

وفي هذه القصة العجب العجاب من فعل أهل الجاهلية، وفيها عدة مسائل من مسائلهم:

١- جحود ما يعلمون أنه من دينهم وفي كتابهم: وقد تقدم الكلام على مثل هذا في المسألة السادسة والعشرين من هذا الكتاب وهذا دليل عليها وهو رواية البخاري في (التفسير/ سورة آل عمران: ٤٥٥٦): فقد سألهم رسول الله ﷺ: «لا تجدون في التوراة الرجم؟» قالوا: ما نجد فيها شيئًا، فقال لهم عبدالله بن سلام: كذبتم ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فوضع مدراسُها الذي يدرِّسُها منهم كفه على آية الرجم، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها، ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم.

٢- الكذب على الله: وقد تقدم الكلام على مثل هذا في المسألة السادسة والخمسين.

٣- إقامة حكم الله على الضعيف، وترك إقامته على الشريف.

٤- إلغاء أحكام الله، واستبدالها بأحكام وضعية وضعها بعضهم: في رواية للحديث السابق عند البخاري في (الحدود/ الرجم في البلاط: ٦٨١٩) قالوا: إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبية، وفي رواية لمسلم في (الحدود: ٤٤٤٠): نجدُه الرَّجمَ، لكنه كَثُر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيفَ، أقمنا عليه الحدَّ، قلنا: تعالوا فلنجتمعْ على شيءٍ نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميمَ والجلدَ مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ إني أولُ من أحيا أمرَكَ إذ أماتوه» فأمر به فرُجم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]. يقول: ائتوا محمداً ﷺ، فإن أمركم بالتحميم والجلدِ فخذوه، وإن أفتاكم بالرَّجم فاحذوروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلِّها.

ولم أجد في الروايات المذكورة اسم من وضع يده على الآية، لكن في رواية البخاري (٧٥٤٣) قالوا: يا أعور: اقرأ.

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: غَرَّهُم افتراؤُهم وكَذِبُهم، أو الَّذي كانوا يَفْتَرونَه مِن قَولِهِم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾، أوْ مِن قولِهِم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، أوْ مِمَّا يَشْمَلُ ذَلِكَ ونحوه مِن قَولِهِم: إنَّ آباءَنا الأنبياءَ يَشْفعونَ لَنا، وإنَّ اللهَ تَعالى وَعَدَ يَعقوبَ أنْ لا يُعَذِّبَ أبناءَه إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ.

فَرَدَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ إلخ.

رُوِيَ أنَّ أوَّلَ رايةٍ تُرفَعُ لأهلِ المَوقِفِ مِن راياتِ الكُفَّارِ رايةُ اليهودِ، فَيَفْضَحُهُمُ اللهُ تَعالى على رُؤوسِ الأشهادِ، ثُمَّ يأمُرُ بِهِم إلى النَّارِ.

وهكذا رَأَيْنَا كَثيرًا مِن أهلِ زَمانِنا يَفعلونَ ما يفعلونَ مِن المُنْكَراتِ، اعتمادًا على الشَّفاعةِ، أو على عُلُوِّ الحَسَبِ وَشَرَفِ النَّسَبِ، واللهُ المُستَعانُ.

وَفِي سورةِ «البقرة» [٨٠-٨٢]: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

* * *

الخامسة والسبعون

اتِّخاذُ قُبورِ أنبيائِهم وصالِحيهِم مساجِدَ.

هَذِهِ المَسْألةُ مِن خِصالِ الكتابِيِّينَ أيّامَ جاهِلِيَّتِهم.

وفي ذَلِكَ ورد الحديثُ الصَّحيحُ: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائِهم مَساجِدَ»[١]، ثُمَّ قَالَ: «فَلا تَتَّخِذوها مَساجِدَ»[٢].

وَفِي الصَّحيحينِ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قاتَلَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائهم مَساجِدَ»[٣].

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخَذُوا قُبورَ أنْبِيائِهِم مَساجِدَ»[٤].

وَفِي الصَّحيحينِ عن عائشةَ وابنِ عبَّاسٍ، قالا[٥]: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَميصَةً على وجهِهِ، فإذا اغْتَمَّ بها كَشَفَهَا عن وجهِهِ، فقال ـ وهو كَذَلِكَ ـ: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا»[٦].

وَفِي الصَّحيحينِ ـ أيضاً ـ عن عائشةَ أنَّ أمَّ سَلَمَةَ وأمَّ حَبيبةَ ذَكَرَتا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنيسةً رَأَيْنَها بأرضِ الحَبَشَةِ يقال لها: «مارِيَة»، وَذَكَرَتا مِن حُسْنِها وتَصاويرَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (الجنائز/ ما جاء في قبر النبي ﷺ: ١٣٩٠)، ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة: ١١٨٤).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك» رواه مسلم في (المساجد: ١١٨٨).

(٣) رواه البخاري في (الصلاة: ٤٣٧)، ومسلم برقم (١١٨٥) من غير لفظة: «والنصارى».

(٤) مسلم برقم (١١٨٤).

(٥) في الأصل: «قال» والتصويب من البخاري برقم (٤٣٥، ٤٣٦).

(٦) رواه البخاري برقم (٤٣٥، ٤٣٦-٣٤٥٣، ٣٤٥٤-٤٤٤٣، ٤٤٤٤-٥٨١٥، ٥٨١٦) بلفظ «لعنة الله على اليهود والنصارى...»؛ ومسلم بنحوه برقم (١١٨٧).

فيها، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أولئكَ قومٌ إذا ماتَ فيهم العبدُ الصَّالحُ أو الرَّجلُ الصالحُ بَنَوا على قبرِهِ مسجِدًا، وَصَوَّروا فيه تلك الصُّورَ، أولئكَ شرارُ الخَلْقِ عند اللهِ»[١].

وعن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زائراتِ القبورِ والمُتَّخِذينَ عَليها المساجدَ والسُّرُجَ»، رواه أهلُ السُّننِ الأربعة[٢].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في (الصلاة/ باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد: ٤٢٧، وباب الصلاة في البيعة: ٤٣٤)، وفي (الجنائز/ بناء المسجد على القبر: ١٣٤١) وهو أقرب لفظ إلى ما ذكره المصنف رحمه الله، ومسلم في (المساجد: ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣).

(٢) ضعيف بهذا السياق والتمام: أخرجه أبو داود برقم (٣٢٣٦)، والنسائي في «الصغرى» برقم (٢٠٤٥)، والترمذي برقم (٣٢٠)، والطيالسي في مسنده (ص ٣٥٧) برقم (٢٧٣٣) وغيرهم، ولم يروه ابن ماجة.

وفي سنده: أبو صالح وهو باذان.

قال الألباني رحمه الله: قلت: وهو ضعيف عند جمهور النقاد، ولم يوثقه أحد إلا العجلي وحده؛ كما قال الحافظ في «التهذيب»، بل كذبه إسماعيل بن أبي خالد والأزدي، ووصمه بعضهم بالتدليس، وقال الحافظ في «التقريب»: «ضعيف مدلس». انتهى كلامه.

وقد أورده الألباني رحمه الله في «الضعيفة» برقم ٢٢٥، وهذا كلامه هناك.

وقد صح بلفظ «لعن رسول الله زوّاراتِ القبور» عند ابن ماجة في (الجنائز/ ما جاء في النهي عن زيارة القبور للنساء: ١٥٧٤)، وهو حديث حسن، ورواه الترمذي أيضاً في (الجنائز/ ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء: ١٠٥٦) قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقد رأى بعض أهل العلم أنَّ هذا كان قبل أن يرخِّص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن. إ. هـ.

قلت: إنما اللعن على «زوارات القبور» وهي من تكثر من زيارتها، أما من زارت من غير كثرة، للاعتبار والاتعاظ، مع الصبر والاحتساب، فلا لعن عليها، بل تؤجر إن شاء الله.

وقد تقدمت قريباً الأحاديث الصحيحة التي فيها لعن المتخذين المساجد على القبور، وأما السرج على القبور، فيستدل على المنع منها بالحديث الصحيح: «شر الأمور محدثاتها، وكلُّ بدعةٍ ضلالة» رواه ابن ماجه في (المقدمة/ باب اجتناب البدع والجدل: ٤٥)، وقد نهى الله سبحانه عن إضاعة المال، في قوله ﷺ: «ونهى عن ثلاثٍ: قيل وقالٍ، وكثرة السؤال، وإضاعةِ المال» رواه مسلم في (الأقضية: ٤٤٨٦)، وكذلك عموم المنع عن مشابهة المشركين، وقد تقدم شيء من الأدلة على ذلك في المقدمة ص (١٢ - ١٣).

فهذا التَّحذيرُ منه، واللعنُ عن مُشابهةِ أهلِ الكتابِ في بناءِ المسجِدِ على قبرِ الرَّجلِ الصَّالحِ صريحٌ في النَّهيِ عنِ المشابهةِ.

وفي هذا دليلٌ على الحذرِ عن جِنسِ أعمالِهم، حيثُ لا يؤمنُ في سائرِ أعمالِهم أنْ يكونَ من هذا الجنسِ.

ثُمَّ من المعلومِ ما قد ابتُلِيَ به كثيرٌ من هذه الأمَّةِ من بناءِ القبورِ مساجدَ، واتِّخاذِ القبورِ مساجدَ بِلا بناءٍ، وَكِلا الأمرينِ مُحَرَّمٌ، معلونٌ فاعلُه بالمستفيضِ من السُّنَّةِ، وَلَيْسَ هَذَا موضعَ استقصاءِ ما في ذَلِكَ من سائرِ الأحاديثِ والآثارِ، ولهذا كان السَّلفُ يُبالِغونَ في المنعِ.

***

السادسة والسبعون

اتخاذُ آثارِ أنبيائِهِم مساجِدَ.

كَمَا وَرَدَ عَن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنَّ هذه المسألةَ مِن بِدَعِ جاهِلِيَّةِ الكِتابيِّينَ، كانوا يتَّخِذونَ آثارَ أنبيائِهِم مَساجِدَ، فوَرِثَهُمُ الجاهِلونَ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ، فتَراهم يبْنونَ على موضِعِ اختَفى بِهِ النَّبيُّ ﷺ، أَوْ وَصَلَ قَدَمُهُ المُبارَكُ، أو تعَبَّدَ فيهِ، فهَذا لَيْسَ يُحْمَدُ في الشَّريعةِ؛ لِجَرِّهِ إلى الغُلُوِّ.

وَفي العِراقِ مواضعُ كثيرةٌ بَنوا عَلَيْها مَبانِيَ، كالمقامِ الَّذي زَعَموا أنَّ الشَّيخَ الكَيلانيَّ تَعَبَّدَ فيهِ، وَكأَثَرِ الكَفِّ الَّذي زَعَمَ الشِّيعَةُ أنَّهُ أثَرُ كَفِّ الإمامِ عَليٍّ لَمَّا وَضَعَه على الصَّخْرةِ فأَثَّرَ فِيهَا، فبَنَوا عَلَيْها مَسجداً، وَكعِدَّةِ أماكِنَ زَعَموا أنَّ الخَضِرَ رُئِيَ فيها، ولا أصلَ لَهُ، إلى غيرِ ذَلِكَ مِمَّا لا يَسْتَوْعِبُهُ المَقامُ.

فَينبغي لِمَن يَدَّعي الإسلامَ أنْ يَتَجَنَّبَها، وَيَنْهى عن حُضورِها، وإنْ رُمِيَ بالإنكارِ، وَعَداوةِ الأشْرارِ، وَكَيْدِ المارقينَ الفُجَّارِ.

وفي المسألةِ تفصيلٌ لا بأسَ بِذِكْرِهِ:

قال شيخُ الإسلامِ: «أما مَقاماتُ الأنبياءِ والصَّالحينَ - وهي الأمكنةُ التي قاموا فيها أوْ أقاموا، أوْ عَبَدوا الله سُبْحانه - لكنَّهم لَمْ يَتَّخذوها مساجِدَ - فالَّذي بَلَغني في ذَلِكَ قَولانِ عن العلماءِ مَشهورَيْنِ:

أحَدُهُما: النَّهيُ عن ذَلِكَ، وكراهتُه، وأنَّه لا يُسْتَحَبُّ قصدُ بُقْعَةٍ لِلعِبادةِ، إلا أنْ يكونَ قَصْدُها لِلعبادةِ مِمَّا جاءَ به الشَّرعُ، مِثْلُ أنْ يكونَ النَّبيُّ ﷺ قَصَدَها لِلعبادةِ، كَما قَصَدَ الصَّلاةَ في مَقامِ إبراهيمَ، وكما كان يَتَحَرَّى الصَّلاةَ عند الأسطُوانةِ، وكما تُقْصَدُ المساجِدُ لِلصَّلاةِ، ويُقْصَدُ الصَّفُّ الأوَّلُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

القولُ الثَّاني: أنَّه لا بأسَ باليَسيرِ مِن ذَلِكَ، كَما نُقِلَ عن ابنِ عُمَرَ أنَّه كان يَتَحَرَّى قَصْدَ المواضِعِ التي سَلَكَها النَّبِيُّ ﷺ، وإنْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ سَلَكَها اتِّفاقًا لا قَصْدًا.

وَسُئِلَ الإمامُ أحمدُ عن الرَّجُلِ يأتي هذه المَشاهِدَ، وَيَذْهَبُ إليها، ترى ذَلِكَ؟ قَالَ: أمَّا على حَديثِ ابنِ أمِّ مَكْتومٍ أنَّه سَألَ النَّبِيَّ ﷺ أنْ يُصَلِّيَ في بيتِه حتى يَتَّخِذَ ذَلِكَ مُصَلًّى[1]، وعلى ما كان يَفْعَلُه ابنُ عُمَرَ، يتتبعُ مواضعَ النَّبِيِّ ﷺ وأثَرَه، فَلَيْس بِذَلِكَ بأسٌ أنْ يأتيَ الرَّجُلُ المَشاهِدَ، إلا أنَّ النَّاسَ قَدْ أفْرَطوا في هذا جِدًّا، وأكْثَروا فيه.

وَكَذلِكَ نَقَلَ عنه أحمدُ بنُ القاسمِ أنَّه سُئِلَ عن الرَّجُلِ يأتي هذه المَشاهِدَ التي بِالمدينةِ وغيرِها يذهبُ إليها؟ فقالَ: أمَّا عَلى حديثِ ابنِ أمِّ مَكْتومٍ أنَّه سألَ النَّبِيَّ ﷺ أنْ يأتيَه، فيصليَ في بيتِه، حَتَّى يَتَّخِذَه مَسجداً، وَعَلى ما كان يَفْعَلُ ابنُ عُمَرَ، كان يَتَتبَّعُ مواضعَ سَيْرِ النبيِّ ﷺ، حَتَّى إنَّه رُئِيَ يَصُبُّ في موضِعٍ ماءً، فَسُئِلَ عن ذَلِكَ، فَقَالَ: «رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ يَصُبُّ هُهنا ماءً»[2]، قال: أمَّا على هذا فلا بأسَ به. قال: وَرَخَّصَ فيه، ثُمَّ قال وَلَكِنْ قد أفرطَ النَّاسُ جِدًّا، وَأكْثَروا في هذا المعنى. فَذَكَرَ قَبرَ الحُسينِ وما يَفعلُ النَّاسُ عندَه. رواهما الخلَّالُ في كتابِ الأدَبِ.

فَقَدْ فَصَّلَ أبو عبدِالله في المَشاهِدِ ـ وهي الأمكنةُ التي فيها آثارُ الأنبياءِ والصَّالحينَ من غيرِ أنْ تكونَ مساجدَ لهم كمواضعَ بالمدينةِ ـ بَيْنَ القليلِ الذي لا يَتَّخِذونَه عيداً، أو الكثيرِ الذي يَتَّخذونَه عيدًا كما تَقَدَّمَ.

وهذا التَّفصيلُ جَمَعَ فيه بَيْنَ الآثارِ وأقوالِ الصَّحابةِ:

فإنَّه قد رَوَى البُخاريُّ في صحيحه عن موسى بنِ عقبةَ قَالَ: «رأيت سالمَ بنَ

---

(١) لم أجده من حديث ابن أم مكتوم، وإنما وجدته من حديث عتبان بن مالك عند البخاري في صحيحه في (الصلاة/ المساجد في البيوت: ٤٢٥) وفي مواضع أخرى، وهي بالأرقام (٦٦٧ و٨٤٠ و١١٨٦ و٥٤٠١)، ومسلم في (الإيمان: ١٤٩) وبرقم (١٤٩٦).

(٢) ذكر الأثر ابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ٢٣٧)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٣) وفي الأصل «هنا» وما أثبته من الاقتضاء.

عبدِالله يَتَحرّى أماكِنَ مِن الطَّريقِ، وَيُصلِّي فيها، وَيُحَدِّثُ أنَّ أباه كان يُصَلِّي فيها، وَأنَّه رأى النَّبيَّ ﷺ يُصلِّي في تلكَ الأمْكِنَةِ»[١].

فهذا كَما رَخَّصَ الإمامُ أحمدُ.

وأمَّا كراهَتُهُ، فَقَدْ رَوى سعيدُ بنُ منصورٍ في سُنَنِهِ قال: حَدَّثَنا أبو مُعاويةَ قال: حَدَّثَنا الأعْمشُ عن المَعْرورِ بنِ سُوَيْدٍ عن عُمَرَ قال: خَرَجْنا مَعَهُ في حَجَّةٍ حَجَّها، فَقَرأَ بِنا في الفجر بـ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] في الثّانيةِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ حَجَّتِهِ رأى النّاس ابْتَدَروا المَسْجِدَ، فقالَ: ما هذا؟ فقالوا: مَسْجِدٌ صَلّى رسولُ اللهِ ﷺ فيه، فقالَ: «هكذا هَلَكَ أهلُ الكتابِ قَبلَكم، اتَّخَذوا آثارَ أنبيائِهم بِيَعًا، مَنْ عَرَضَتْ لَهُ مِنْكُمُ الصَّلاةُ فيه فَلْيُصَلِّ، ومن لم تعرض له الصلاة فَلْيَمْضِ»[٢].

فقد كَرِهَ عُمرُ اتِّخاذَ مُصلّى النَّبيِّ ﷺ عِيدًا، وَبَيَّنَ أنَّ أهلَ الكتابِ إنَّما هَلَكوا بِمثلِ هذا، كانوا يَتَّبِعونَ آثارَ أنبيائِهم، وَيَتَّخِذونها كنائسَ وَبِيَعًا.

وَرَوَى محمَّدُ بنُ وضَّاحٍ وغيرُه: «أنَّ عمرَ بنَ الخَطَّابِ أمَرَ بقطعِ الشَّجَرَةِ التي بُويعَ تحتَها النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يذهبونَ تحتها، فخافَ عمرُ الفتنةَ عليه»[٣].

وَمَا ذَكَرَه عُمَرُ هو الحَرِيُّ بالقبولِ، وهو مذهبُ جُمهورِ الصَّحابةِ، غيرَ ابنِهِ[٤]، وهو الَّذي يَجبُ العملُ به، ويُعَوَّلُ عَلَيْهِ.

---

(١) رواه البخاري في (الصلاة/ المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ (٤٨٣)، وفيه: «فيصلي» بدل «ويصلي».

(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (كتاب الصلاة/ باب ما يقرأ في الصبح في السفر: ١/١١٨- ١١٩ برقم ٢٧٣٤)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص ٤١-٤٢).

(٣) لعل الصواب «عليهم»: رواه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» ص (٤٢-٤٣). اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٢-٧٤٤) مع اختلاف بكلمات يسيرة.

(٤) إنما أراد ابن عمر رضي الله عنهما بفعله الاقتداء لا التبرك، لأن من تبرك بشجرة أو حجر أو غيرهما فقد أشرك، وهي من صفات أهل الجاهلية.

السابعة والسبعون

اتِّخاذُ السُّرُجِ على القُبورِ.

دَليلُ حُرْمَةِ ذَلِكَ ما وردَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن الحديثِ الَّذي سَبَقَ ذِكْرُهُ مِن لَعْنِ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ(١).

وَلَيْتَكَ رَأَيْتَ ما يُوقَدُ في تُرَبِ أئِمَّةِ أهلِ البيتِ ونحوِها مِن الشُّموعِ، ولا سِيَّما في لَيالي رَمَضانَ والليالي المُباركَةِ، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

***

الثامنة والسبعون

اتِّخاذُها أعيادًا.

اعْلَمْ أنَّ العِيدَ اسمٌ لِما يَعودُ مِنَ الاجْتِماعِ العامِّ على وَجْهٍ مُعْتادٍ عائدًا ما تَعودُ السَّنَةُ أوْ يَعودُ الأسبوعُ أو الشَّهرُ أو نَحو ذَلِكَ، فالعيد يَجمعُ أُموراً.

منها: يومٌ عائدٌ، كَيومِ الفِطْرِ، وَيَومِ الجُمُعَةِ.

ومِنها: اجتِماعٌ فيه.

ومِنها: أعمالٌ تَجمعُ ذَلِكَ مِنَ العِباداتِ أوِ العاداتِ.

وَقَدْ يَختَصُّ العيدُ بِمَكانٍ بِعينِه، وَقَدْ يكونُ مُطْلَقًا.

هؤلاءِ مُسْلِمو أهلِ العراقِ، لِكُلِّ تُربةِ وليٍّ يومٌ مخصوصٌ يجتمعون فيه للزِّيارةِ، كزيارةِ الغَديرِ، وَمَرَدِّ الرَّأس.

ومِنهم من خُصَّ له يومٌ من أيَّامِ الأسبوعِ، فالجمعةُ لِفلانٍ، والسبت لفلان، والثُّلاثاءُ لِفُلانٍ، وهكذا.

---

(١) الحديث ضعيف، وتقدم الكلام على ذلك في المسألة الخامسة والسبعين.

وَمِن ذَلِكَ بعضُ الأيَّام والليالي المُباركَةِ، كَلَيْلَةِ القَدْرِ، وَأيَّامِ الأعْيادِ، وَلَيْلَةِ النِّصْفِ مِن شَعْبانَ[١]، وَغَيرِ ذَلِكَ، كل ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يُنْزِلِ اللهُ بِهِ مِن سُلْطانٍ، ومن مكايد الشيطان.

***

التاسعة والسبعون

الذَّبحُ عندَ القُبورِ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

أَمَرَهُ اللهُ تَعالى أنْ يُخبِرَ المُشرِكينَ الذين يَعبدونَ غيرَ اللهِ، ويَذبحون لَهُ، أيْ: أنَّه أخلصَ لِلَّهِ صلاتَه وذبيحتَه؛ لأنَّ المُشرِكينَ يَعبدونَ الأصنامَ ويذبحونَ لَها، فَأَمَرَهُ اللهُ تعالى بِمُخالَفَتِهِم، والانحرافِ عمَّا هُم فيه، والانقيادِ بالقَصْدِ والنِّيَّةِ والعزم على الإخلاصِ لِلَّهِ تَعالى، فَمَن تَقَرَّبَ لغيرِ اللهِ تعالى لِيَدفَعَ عنه ضَيراً، أو يَجْلِبَ لَه خَيراً، تَعظيماً لَهُ، مِن الكُفْرِ الاعتقاديِّ والشِّرك الذي كان عليه الأوَّلونَ.

وسببُ مشروعيَّةِ التَّسميةِ تخصيصُ مِثلِ هذه الأمورِ العِظامِ بالإلهِ الحَقِّ المعبودِ العلَّامِ، فإذا قُصِدَ بالذَّبحِ غيرُه، كان أولى بالمنعِ.

وَصَحَّ نهيُهُ ﷺ عَمَّنِ اسْتَأْذَنَهُ بالذَّبحِ بِبُوانَةَ، وأنَّهُ قد نَذَر ذَلِكَ، فقال لَهُ ﷺ: «أكانَ فيها صَنَمٌ؟»، قَالَ: «لا»، قال: «فَهَل كان فيها عِيدٌ مِن أعيادِ المُشرِكِينَ؟»، قال: «لا»، قال: «فأوْفِ بنذرِكَ». أخرج ذلك أبو داودَ في سُنَنِه[٢].

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن الله يطَّلعُ على عبادِه في ليلةِ النصف من شعبان، فيغفر للمؤمنين، ويملي للكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه» وهو حديث حسن، رواه الطبراني في «الكبير»؛ وهو في «صحيح الجامع» برقم ١٨٩٨.

(٢) صحيح: رواه أبو داود في كتاب (الأيمان والنذور/ ما يؤمر به من الوفاء بالنذر: ٣٣١٣)، قال رسول الله ﷺ: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعْبَدُ؟» قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قالوا: لا، قال النبي ﷺ: «أوفِ بنذرِكَ، فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابنُ آدم».

وهذا السَّائلُ مُوَحِّدٌ مُقَرِّبٌ لِلَّهِ سبحانَه وتعالى وحْدَه، لَكِنِ المكان الذي فيه معبودٌ غيرُ اللهِ، وَقَدْ عُدِمَ، أو مَحَلٌّ لاجْتِماعِهِم يَصْلُحُ مانِعًا، فَلَمَّا عَلِمَ النَّبيُّ ﷺ أنْ لَيسْ هناك شَيْءٌ مِن ذَلِكَ، أجازَهُ، وَلَو عَلِمَ شَيْئًا مِمَّا سألَ عنه، لَمَنَعَهُ، صِيانَةً لحِمى التَّوحيدِ، وَقَطْعًا لذَريعَةِ الشِّركِ.

وَصَحَّ ـ أيضاً ـ عنه ﷺ أنَّه قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ في ذُبابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجلٌ في ذُبابٍ»، قالوا: «كيف ذلك يا رسولَ اللهِ؟!» قال: «مَرَّ رَجُلانِ على قوم لهم صَنَمٌ لا يُجاوِزُهُ أحدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيئًا، قالوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُباباً، فَقَرَّبَ ذُباباً، فَخَلَّوا سبيلَه، فَدَخَلَ النَّارَ، وقالوا للآخرِ: قَرِّبْ، قال: ما كنتُ أقربُ شَيئًا لأحَدٍ دونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَضَربوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الجَنَّةَ».

ففي هذا الحديثِ من الفوائدِ: كَونُ المُقَرِّبِ دخل النَّارَ بالسَّببِ الذي لم يَقْصِدْهُ، بل فَعَلَه تَخَلُّصاً مِن شَرِّهِم، وَأنَّهُ كان مُسْلِماً، وإلا لَمْ يَقُلْ: دخل النَّارَ.

وفيه ما يَنبغي الاهتمامُ بِهِ مِن أعمال القُلوبِ، التي هي المَقصودُ الأعظمُ والرُّكْنُ الأكبرُ.

فَتَأمَّلْ في ذَلِكَ، وانظُرْ إلى فؤادِك في جميع ما قالوه، وَألْقِ سَمْعَكَ لِما ذَكَروهُ، وانظُر الحَقَّ، فإنَّ الحَقَّ أبْلَجُ والباطِلَ لَجْلَجٌ، فَبِالنَّظَرِ التَّامِّ إلى ما كان عليه المُشرِكون مِن تَقَرُّبِهِم لأوثانِهِم؛ لِتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ؛ لِكونِهِم شُفعاءَ لهم عند اللهِ، وشفاعتُهم بسببِ أنَّهم رُسُلُ اللهِ أو ملائكةُ اللهِ أو أولياءُ اللهِ، يتبينُ لك ما عليه النَّاسُ الآنَ، واللهُ المستعانُ.

***

الثمانون

التَّبَرُّكُ بِآثَارِ المُعَظَّمِينَ، كَدارِ النَّدْوَةِ[١]، وافتِخارُ مَن كانت تحت يدِهِ بِذلِكَ.

كما قيل لحكيمِ بنِ حِزامٍ: بعتَ مَكْرُمَةَ قريشٍ؟! فقال: «ذهبت المكارمُ إلا التَّقوى»[٢].

هذه الخَصلةُ قدِ امْتَدَّت عروقُ ضَلالِها في أودِيةِ قُلوبِ جَهَلَةِ المُسلِمينَ، وزادوا في الغُلُوِّ بها عَلى ما كانَ عَلَيْهِ جاهِلِيَّةُ العربِ والكِتابِيِّينَ.

ولا بِدْعَ مِن حكيم بنِ حزامٍ القريشيِّ الأسديِّ إذا ما ردَّ عَلى مَن قال له: بِعتَ مَكْرُمَةَ قريشٍ؛ وقد باعها مِن مُعاوِيَةَ بمائةِ ألفِ دِرهَمٍ: «ذهبت المَكارمُ إلا التَّقوى».

كيفَ لا وقد كان عاقلاً سَرِيّاً، فاضلاً تَقِيًّا، سَيِّداً بِمالِهِ غَنِيّاً، أعتَقَ في الجاهِلِيَّةِ مائةَ رَقَبَةٍ، وَحَمَلَ عَلَى مائةِ بَعِيرٍ، وحَجَّ في الإسلامِ ومعه مائةُ بَدَنَةٍ قَدْ جَلَّلَها بالحَبِرَةِ، وَكَفَّها عن أعجازِها، وأهداها، وَوَقَفَ بمائةِ وَصيفٍ بعرفةَ في أعناقِهِم أطواقُ الفِضَّةِ مَنْقوشٌ فيها: «عتقاءُ اللهِ عن حكيمِ بنِ حِزامٍ»، وأَهْدَى ألفَ شاةٍ، وهو الَّذِي عاش في الجاهِلِيَّةِ ستِّينَ سَنَةً، وفي الإسلامِ ستِّينَ سَنَةً، وَوُلِدَ في الكَعْبَةِ.

---

(١) دار الندوة: دار بناها قصي بن كلاب، وكانت قريش تأتمر فيها، حيث كانوا يتيامنون بأمره «فما تنكح امرأة، ولا يتزوج رجل من قريش، وما يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواءً لحربِ قوم من غيرهم إلا في داره، يعقد لهم بعض ولده، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها من درعها، ثم تدرعه، ثم ينطلق بها إلى أهلها، فكان أمره في قومه من قريش في حياته، ومن بعد موته، كالدين المتبع»، مختصر سيرة ابن إسحاق لابن هشام (١/ ١٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٨٦) برقم (٣٠٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٤): «رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن».

الحادية والثمانون

الفَخْرُ بِالأَحْسابِ.

الثانية والثمانون

الاسْتِسْقاءُ بالأَنْواءِ.

الثالثة والثمانون

الطَّعْنُ في الأنسابِ.

الرابعة والثمانون

النِّياحَةُ.

أقولُ: هذه المسائلُ الأربعُ دليلُ بُطلانِها حديثٌ واحدٌ، وهو ما رواه البخاريُّ ومُسْلِمٌ، واللفظُ لِمسلمٍ، بسنده إلى أبي مالكٍ الأشعَرِيِّ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال[١]: «أربعٌ في أُمَّتي من أمرِ الجاهِلِيَّةِ لا يترُكونَهُنَّ: الفخرُ في الأحسابِ، والطَّعنُ في الأنسابِ، والاسْتِسْقاءُ بالنُّجومِ، [والنياحةُ»]. و[قال: «] النَّائِحَةُ ـ أو قال: النَّائِحَةُ ـ إذا لَمْ تَتُبْ قَبلَ مَوتِها، تُقامُ يومَ القِيامةِ وعليها سربالٌ مِن قَطِرانٍ، وَدِرْعٌ مِن جَرَبٍ»[٢].

الفخرُ في الأحسابِ: افتخارُهُم بِمَفاخِرِ الآباءِ.

والطَّعْنُ في الأنسابِ: إدخالُهم العيبَ في أنسابِ النَّاسِ؛ تَحْقيراً لآبائِهِم، وتَفْضيلاً لآباءِ أنْفُسِهِم على آباءِ غيرِهِم.

---

(١) في الأصل: (أن النبي ﷺ حدثه قال) والتصويب من صحيح مسلم.

(٢) رواه مسلم في (كتاب الجنائز: ٢١٦٠) وما بين معكوفتين منه، وقوله: (والنابحة أو قال: النائحة)، ليست في مسلم على الشك، وإنما: وقال: «النائحة إذا لم تتب...» الحديث.
ولم أجد الحديث في «صحيح البخاري».

والاسْتِسقاءُ بِالنُّجوم: اعْتِقادُهُم نُزولَ المَطَرِ بِسُقوطِ نَجْمٍ في المغربِ مع الفجرِ، وطلوعِ آخر يُقابِلُهُ مِن المشرقِ، فقد كانوا يقولونَ: مُطِرْنا بِنَوءِ كَذا، وقالَ تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وهذا مُفَصَّلٌ في كُتُبِ الأنْواءِ بِما لا مَزيدَ عَلَيْهِ.

ومَعْنَى قولِه في النَّائحَةِ: «وعليها سِرْبالٌ مِن قَطرانٍ»: أنَّ اللهَ تعالى يُجازيها بِلِباسٍ مِن قَطرانٍ؛ لأنَّها كانت تَلْبَسُ الثِّياب السُّودَ.

وَقَوْلُهُ: «دِرْعٌ مِن جَرَبٍ»، يعني: يُسلَّطُ على أعضائها الجَرَبُ والحِكَّةُ، حيثُ يُغطِّي بَدَنَها تَغطيَةَ الدِّرْعِ ـ وهو القميصُ ـ؛ لأنَّها كانت تَجرَحُ بكلماتِها المُحْرِقَةِ قُلوبَ ذَوي المُصيباتِ.

فهذا الحديثُ دَلَّ على بطلانِ ما كان عليه أهلُ الجاهِلِيَّةِ مِن هذِهِ الخصالِ الرَّديئَةِ.

وَوَرَثَتُهُم(١) اليومَ مِن هذهِ الأمَّةِ، تَجاوَزوا فيها أسلافَهُم، وزادوا في الطُّنبورِ نغَماتٍ، فَتَراهم يَفْتَخرون بِمَزايا آبائِهم وهُمْ بمَراحِلَ عنهم، فهذا يقول: كان جَدِّي الشيخَ الفُلانيَّ، وهذا يقولُ: جدِّي العَالِمُ الرَّبَّانيُّ، إلى غيرِ ذَلِكَ.

وكذلك الطَّعْنُ في الأنسابِ، فهذا يقولُ: إنَّ آباءَ فلانٍ لم يكونوا مِن العترةِ الطَّاهرةِ.

وكذلِكَ الاسْتِسْقاءُ بالأنْواءِ، ولم يعتقدْ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ أنَّ ما كان من فعلِ ربِّ الأرضِ والسَّماءِ.

وهكذا النَّوحُ على الأمواتِ، فقد اتَّخذَهُ كثيرٌ مِن النَّاسِ مِن أفضلِ الأعمالِ، وسببِ الوصولِ إلى مَرضاةِ ذي الجَلالِ، لا سِيَّما مَن اتَّخذَ المآتِمَ الحُسَيْنِيَّةَ في كلِّ عامٍ؛ فهناك مِنَ البِدَعِ ما تَكلُّ عن نَقْلِه ألسنةُ الأقلام، والويلُ كل الويلِ لِمَن أنْكرَ شَيْئاً مِن ذَلِكَ، فإنَّهم يُورِدونَه مَوارِدَ العَطَبِ والمَهالِكِ، والأمر لِلَّهِ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

---

(١) في الأصل: «وورثهم» ولعل الصواب ما أثبته.

الخامسة والثمانون

تعْيِيرُ الرَّجُلِ بِفِعْلِ غَيرِهِ، لا سيَّما أبوه وأمُّه.

فَخالَفَهم ﷺ، وقالَ: «أعيَّرْتَهُ بأمِّهِ؟ إنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ».

والحديثُ في صحيحِ الإمامِ البخاريِّ في بابِ «المعاصي مِن أمرِ الجاهِلِيَّةِ، ولا يَكْفُرُ صاحبُها بارْتِكابِها إلا بالشِّركِ لِقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ»، وقولِ اللهِ تَعالى في سورة «النِّساءِ» [٤٨]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾».

وهذا البابُ في كتابِ الإيمان من صحيحِه، ثُمَّ قَالَ: «حَدَّثَنا سُليمانُ ابنُ حَرْب، قالَ: حَدَّثَنا شُعْبَةُ عن واصلٍ عن المَعْرورِ، قال: لَقِيتُ أبا ذَرٍّ بالرَّبَذَةِ[1]، وَعَلَيهِ حُلَّةٌ وعلى غلامِهِ حُلَّةٌ، فسألتُهُ عن ذلكَ، فقالَ: «إني سابَبْتُ رَجلاً، فَعَيَّرْتُهُ بأمِّهِ، فقالَ لي النَّبيُّ ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، أعيَّرْتَهُ بأمِّهِ؟! إنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ، إخوانُكُم خَوَلُكُم، جعلَهُمُ اللهُ [تَعالى] تحتَ أيديكُم، فمَن كان أخوه تحتَ يدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يأكلُ، ولْيُلْبِسْهُ مِمَّا يلبَسُ، ولا تكلِّفوهُم ما يغلِبُهم، فإن كلَّفْتُموهم، فأعينوهم»[2].

وقد أطْنبَ شُرَّاحُ الحديثِ في شرحِهِ، وليس هذا موضعَ استقصائِهِ، والمقصودُ منهُ أن تَعْييرَ الرَّجُلِ بِفعْلِ غيرِه ليس من شأنِ كاملِ الإيمانِ والمعرفةِ، فإنَّ أبا ذَرٍّ رضي الله تعالى عنه قَبْلَ بُلوغِهِ المَرْتَبَةَ القُصْوى مِنَ المعرفةِ تَسابَّ هو وبلالٌ الحَبَشيُّ المُؤَذِّنُ، فقالَ لَهُ: «يا ابنَ السَّوداءِ»، فَلَمَّا شَكا بلالٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قال لَهُ: «شَتَمْتَ بِلالاً، وعَيَّرْتَهُ بسوادِ أمِّهِ؟!»، قال: «نَعَمْ»، قال: «حَسِبْتُ أنَّهُ بَقِيَ فيكَ شَيْءٌ مِن كِبْرِ الجاهِلِيَّةِ»، فَألقَى أبو ذرٍّ خَدَّهُ على التُّرابِ، ثُمَّ قالَ: «لا أرفَعُ خَدِّي حَتَّى يطأَ بلالٌ خَدِّي بقَدَمِهِ».

والنَّاسُ اليومَ ـ والأمرُ لِلَّهِ ـ قد كَثُرَت فيهم خصالُ الجاهِلِيَّةِ، فَتَراهم يُعَيِّرونَ أهلَ البلدِ كلَّهم بِما صَدَرَ عن واحدٍ مِنهم، فأينَ ذلكَ مِن خصالِ الجاهِلِيَّةِ؟!

---

(١) الربذة: قرية من قرى المدينة النبوية. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/ ٢٤).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٠).

السادسة والثمانون

الافْتخارُ بِوِلايَةِ البيتِ.

فذَمَّهم اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

وهذه الآيةُ في سورةِ المؤمنينَ، وهي بتمامِها قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۞ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٧].

ومَعْنى الآيةِ على ما في التَّفسيرِ:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تعليلٌ لقوله قَبلُ: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: دَعوا الصُّراخَ، فإنَّه لا يمنعُكم منَّا، ولا ينفعُكم عِندنا، فقدِ ارتَكَبْتُم أمرًا عظيماً، وإثماً كبيراً، وهو التَّكذيبُ بالآياتِ، فلا يدفعُه الصُّراخُ، فكنتم عند تلاوتِها: ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: مُعرِضونَ عن سماعِها أشدَّ الإعراضِ، فَضْلاً عن تصديقِها والعملِ بها، والنُّكوصُ: الرُّجوعُ، والأعقابُ: جمعُ عَقِبٍ وهو مُؤَخَّرُ الرِّجْلِ، ورجوعُ الشَّخصِ على عَقِبِهِ: رجوعُه في طريق الأوَّلِ، كما يقال: رَجَعَ عَوْدَه على بَدْئِه.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيتِ الحرامِ، والباءُ لِلسَّببِيَّةِ وسُوِّغَ بهذا الإضمارُ، مَعَ أنَّه لم يَجْرِ ذِكرُ اشتهار استبكارِهم، وافتخارِهم بأنَّهم خُدَّامُ البيتِ وقُوَّامُهُ.

﴿سَٰمِرًا﴾، أي: تَسمُرونَ بذكرِ القرآنِ، والطَّعنِ فيه، وذلكَ أنَّهم كانوا يَجتمعون حولَ البيتِ يَسْمُرونَ، وكانت عامَّةُ سَمرِهم ذكرَ القرآنِ، وتسميتَه سِحراً أو شعراً.

و ﴿تَهْجُرُونَ﴾ مِنَ الهَجْرِ ـ فتح فسكون ـ، بمعنى القطعِ والتَّركِ، والجملةُ في موضعِ الحالِ، أي: تاركينَ الحَقَّ والقرآنَ أو النَّبِيَّ ﷺ على تقديرِ عودِ الضميرِ ﴿بِهِۦ﴾ له، وجاءَ الهَجْرُ بمعنى الهَذَيانِ، وَجوَّزَ أنْ يكونَ المَعْنى عليه، أي: تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ أو النَّبِيِّ ﷺ أو أصحابِه، أو ما يَعُمُّ جميعَ ذَلِكَ، وَيَجوزُ أنْ يكونَ من الهُجْرِ ـ بضم فسكون ـ وهو الكلامُ القَبيحُ.

فأنكرَ اللهُ تَعالى عليهم بقولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ لِيَعْلَموا ـ بما فيه من وُجوه الإعجازِ ـ أنَّه الحَقُّ من ربِّهم، فيُؤمنوا به ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أيْ: بَلْ جاءَهُم . . إلخ.

والمقصودُ أنَّ من خصالِ الجاهِلِيَّةِ التَّكبُّرَ بسببِ الرِّئاسةِ على المواضِعِ المُقَدَّسَةِ، كما هو ـ اليومَ ـ حالُ كثيرٍ ممَّن يَدَّعي الشَّرَفَ بسببِ ذلكَ، فمِنهم مَنِ ادَّعى الشَّرَفَ على المُسلِمينَ بسببِ رِئاستِهِ على مكَّةَ والمدينةِ، ومِنهم مَنِ ادَّعاه بسببِ الرِّئاسةِ في المَشاهِدِ أو مقاماتِ الصَّالحينَ، وهٰؤلاءِ الذين يَدَّعونَ انتِسابَهم إلى عبدِالقادرِ الجيلي في بغدادَ يدَّعون الشَّرَفَ بسببِ رئاستِهم على قبرِ عبدِالقادر، واستيلائِهم على النُّذورِ والصَّدَقاتِ والذَّبائح والقرابين الشِّرْكيَّةِ، التي يَتَعَبَّدُها جَهَلَةُ المُسلِمين مِنَ الهُنودِ والأكْرادِ ونحوِهِم، وهُمْ أفْسَقُ خَلْقِ اللهِ، وأدْنؤهم نَفْسًا، وأرْذَلُ خَلْقِ اللهِ مَسْلَكاً، فما يفيدُهم ذلك عند اللهِ شَيْئاً، وما يُنجيهم مِنْ مَقْتِ اللهِ وعذابِه، وإنْ ظَنَّ بِهِمُ العوامُّ ما ظَنُّوا، فَهم عند اللهِ وعند عبادِهِ الصَّالحينَ أحقرُ من الذَّرِّ، وأبعدُ عن رحمتِهِ يومَ القِيامةِ.

***

السابعة والثمانون

الافْتِخار بِكَوْنِهم مِنْ ذُرِّيَّةِ الانبياءِ عليهم السلام.

فَرَدَّ اللهُ عليهم بقولِهِ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

هذه الآيةُ في آخِرِ الجُزْءِ الأوَّلِ من سورةِ «البقرةِ» وتفسيرُها:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ﴾: الإشارةُ إلى إبراهيم عليه السلام وأولادِهِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] . . . إلخ.

والأمَّةُ أتَتْ لِمَعانٍ، والمرادُ بها ـ هنا ـ الجَماعةُ، مِن «أمَّ»، بمعنى قَصَدَ، وَسُمِّيَتْ

كُلُّ جماعةٍ يَجْمَعُهُم أمرٌ ما: إمَّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ، بذلك؛ لأنّهم يَؤُمُّ بعضُهم بعضًا، وَيَقْصِدُهُ.

والخُلُوُّ: المُضِيُّ، وأصلُه الانفرادُ.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾، والمَعْنى: إنَّ انتِسابَكم إليهم لا يوجِبُ انتفاعَكم بأعمالِهم، وإنّما تنتَفِعونَ بموافقتِهم واتِّباعِهم، كما قال ﷺ: «يا مَعْشَرَ قُريشٍ! إنَّ أوْلى النَّاسِ بالنَّبِيِّ: المُتَّقونَ، فكونوا بِسَبيلٍ مِنَ ذَلِكَ فانظُروا أنْ لا يَلقاني النَّاسُ يَحْمِلون الأعمالَ، وتَلْقَوني بالدُّنيا، فَأَصُدَّ عنكم بوجْهِي».

وهذاالحديثُ بمعنى قولِه تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومَعْنى قولِه: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لا تُؤاخَذونَ بِسَيِّئاتِهم، كما لا تُثابونَ بحسناتِهم.

وهذه الخَصلةُ موجودةٌ اليومَ في كثيرٍ مِن المسلمينَ، ورأسُ مالِهم الافتخارُ بالآباءِ، فَمِنهم مَن يقولُ: أنا مِن ذُرِّيَّةِ عبدِالقادرِ الكيلانيِّ، ومِنهم مَن يقولُ: أنا مِن ذُرِّيَّةِ أحمدَ الرِّفاعيِّ، ومِنهم مَن يقولُ: أنا بكريٌّ، ومنهم من يقول: أنا عُمَريٌّ، ومنهم من يقول: أنا عَلَويٌّ أو حَسَنِيٌّ أو حُسَيْنِيٌّ، ولا فضيلةَ لهم ولا تَقْوى، وكلُّ ذلك لا ينفعُهم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، ورسولُ اللهِ ﷺ يقول لفاطمة: «يا فاطمةُ بنتَ محمَّدٍ، لا أُغني عنكِ مِن اللهِ شَيئًا»[١].

وما قَصْدُ أولَئك المُفْتَخِرينَ بآبائِهم ـ وهم عارونَ عن كُلِّ فضيلةٍ ـ إلا أكل أموالِ النَّاسِ بالباطلِ، وفي المثل: «كُنْ عِصاميًا، وَلا تَكُنْ عِظاميًا».

---

(١) رواه البخاري في (الوصايا/ هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ ٢٧٥٣) وبرقم (٤٧٧١) بلفظ: «يا فاطمة بنتَ محمد ﷺ، سليني من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا»، ومسلم في (الإيمان: ٥٠٤) بلفظ: «يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئتِ، لا أغني عنك من الله شيئاً».

إنَّ الفَتَى مَن يقولُ ها أنا ذا   لَيسَ الفَتَى مَنْ يقولُ كانَ أبي

ولِلّهِ دَرُّ مَن قالَ يَرُدُّ على المفتخِرِ بِذَلِكَ:

أقولُ لِمَن غَدا في كُلِّ يومٍ   يُباهينا بأسلافٍ عِظامِ
أتَقْنَعُ بالعِظامِ وأنتَ تَدْري   بأنَّ الكَلبَ يَقْنَعُ بالعِظامِ

وقالَ آخَرُ:

وما الفَخْرُ بالعَظْمِ الرَّميمِ وإنَّما   فخارُ الذي يَبْغي الفَخار بِنَفْسِهِ

***

الثامنة والثمانون

الافْتِخارُ بِالصَّنائِعِ، كَما افْتَخَرَ أهلُ الرحلَتَينِ على أهلِ الحَرْثِ.

يُريدُ بِالرِّحلَتَينِ: رِحْلَةَ الشِّتاءِ إلى اليَمَنِ، وَرِحْلَةَ الصَّيْفِ إلى الشَّامِ، وَهِيَ عادَةٌ كانتْ لِقُرَيشٍ، كَما ذُكِرَ في سورةِ الإيلافِ.

والمقصودُ أنَّه لا يَنبغي للتَّاجِرِ أنْ يَفْتَخِرَ بِتِجارتِه على أهل الحرث، ولا أهلِ كلِّ حِرْفَةٍ على المُحْتَرِفينَ بِحِرْفَةٍ أُخرى، فإنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنَ المكاسِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى عِبادةِ اللهِ، وطاعتِه، وامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهِيهِ؛ لِيُتَوَصَّلَ بِذَلِكَ إلى النَّجاةِ الأبديَّةِ، وهي مدارُ الفخرِ.

وأمَّا ما سِوى ذَلِكَ فَكُلُّهُ ظِلٌّ زائِلٌ ونَعيمٌ غيرُ مُقيمٍ، فلا يَنبغي لِلعاقِلِ أنْ يَفْخَرَ بِزَخارِفِ الدُّنيا الدَّنيئَةِ، ولا يَعْلَمُ مَتى يُفارِقُها.

نَسألُه تَعالى التوفيقَ، والعملَ الصالحَ الذي يُرضِيهِ.

***

التاسعة والثمانون

عَظَمَةُ الدُّنيا في قُلوبِهِم.

كَقَولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

أيْ: مِن خِصالِ الجاهِلِيَّةِ مُراعاةُ الدُّنيا، وعَظَمَتُها في قُلوبِهِم، كَما حَكى اللهُ عنهم ذلكَ بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢].

هذه الآيةُ في سورةِ «الزُّخرُفِ»، ومَوْضِعُ الاستِشهادِ فيها قولُه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

المُرادُ مِنَ القَريتينِ: مكَّةُ والطَّائفُ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: «الذي مِن مكَّةَ: الوليدُ بنُ المُغيرةِ المَخزوميُّ، والذي مِن الطَّائفِ: حَبيبُ بنُ عمرِو بنِ عُمَيرٍ الثَّقفيُّ، وكُلٌّ مِنهما كان عَظيماً، ذا جاهٍ ومالٍ، وكان الوليدُ بنُ المغيرةِ يُسَمَّى «رَيْحانةَ قريشٍ»، وكانَ يقولُ: لو كانَ ما يقولُ محمَّدٌ حقّاً لَنَزَلَ عَلَيَّ أو على أبي مَسعودٍ، يعني عُروةَ بنَ مسعودٍ، وكان يُكْنى بِذَلِكَ»[(١)].

وهذا بابٌ آخَرُ من إنكارِهِم للنُّبُوَّةِ، وذَلِكَ أنَّهم انكَروا أوَّلاً أنْ يكونَ النَّبيُّ بَشَراً، ثُمَّ لَمَّا بُكِّتوا بِتكريرِ الحُجَجِ، ولم يَبْقَ عندهم تصوُّرُ رَواجٍ لِذَلِكَ، جاؤوا بالإنكارِ مِن وجْهٍ آخَرَ، فَحَكَموا على اللهِ سُبحانه أنْ يَكونَ الرَّسولُ أحَدَ هذينِ.

وقولُهُم: ﴿نُزِّلَ هَٰذَا﴾: ذِكْرٌ لهُ على وَجهِ الاستِهانةِ؛ لأنَّهم لم يَقولوا هذهِ المَقالةَ

---

(١) ذكر ابن إسحاق الوليد بن المغيرة حيث قال: أيُنزَلُ على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمرو الثقفي سيد ثقيف؟! فنحن عظيما القريتين. «السيرة» (١/ ٤٨٧) معلقًا، وقد وصله أبو نعيم في «الدلائل» (ص ١٦٩).

تسليماً، بَل إنكاراً، كَأنّه قيلَ: هذا الكذبُ الذي يَدَّعيه، لَوْ كانَ حَقّاً، لكانَ الحَقيقَ به رجلٌ مِن القَريتينَ عَظيمٌ.

وَهَذا منهم لِجَهْلِهِم بِأنَّ رُتْبَةَ الرِّسالةِ إنَّما تَستدعي عظيمَ النَّفسِ بالتَّخَلِّي عن الرَّذائلِ الدَّنِيَّةِ، والتَّحَلِّي بِالكمالاتِ والفَضائلِ القُدْسِيَّةِ، دونَ التَّزَخْرُفِ بِالزَّخارِفِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

فَأنكرَ سُبحانَه عَلَيْهِم بِقولِهِ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وفيهِ تَجْهيلٌ وَتَعْجيبٌ مِن تَحَكُّمِهِم بِنزولِ القرآنِ العَظيمِ على مَن أرادوا.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ قِسمةً تَقْتَضيها مشيئَتُنا المَبْنِيَّةُ على الحِكَمِ والمَصالحِ، ولم نُفَوِّضْ أمرَها إلَيْهِم، عِلماً مِنَّا بعَجْزِهِم عَن تَدبيرِها بالكُلِّيَّةِ.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرِّزْقِ وسائرِ مبادىءِ العَيْشِ.

﴿دَرَجَٰتٍ﴾ مُتَفاوِتَةً بِحَسَبِ القُربِ والبُعدِ حَسْبَما تَقتضيه الحِكْمَةُ، فَمِن ضعيفٍ وقويٍّ، وَغَنيٍّ وفقيرٍ، وخادِمٍ ومخدومٍ، وحاكِمٍ ومحكومٍ.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: لِيَستعملَ بعضُهم بعضًا في مصالحِهِم، ويَسْتخدِموهم في مِهَنِهِم، وَيُسَخِّروهم في أشغالِهِم، حَتَّى يَتَعايَشوا، ويَترافَدوا، وَيَصِلوا إلى مرافِقِهِم، لا لكمالٍ في المُوَسَّع عَلَيْهِ، ولا لِنَقصٍ في المُقَتَّرِ عَلَيْهِ، وَلَوْ فَوَّضْنا ذَلِكَ إلى تدبيرِهِم لَضاعوا وَهَلَكوا، فإذا كانوا في تدبير خُوَيْصَّةِ أمرِهِم، وما يُصْلِحُهُم مِن مَتاعِ الدُّنْيا الدَّنِيَّةِ وهو على طَرَفِ الثُّمامِ[1] بِهذِهِ الحالةِ، فما ظَنُّهُم بِأنفُسِهِم في تدبيرِ أنفسِهم، وفي تدبيرِ أمرِ الدِّيْنِ، وهو أبعدُ مِن مَناطِ العَيُّوقِ، ومِن أينَ لهمُ البحثُ في أمرِ النُّبوَّةِ، والتَّخَيُّرُ لها مَن يَصلُحُ لها، ويقومُ بأمرِها.

وفي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾.. إلخ ما يُزَهِّدُ في الانكبابِ على طَلَبِ الدُّنيا، ويُعينُ على التَّوكُّلِ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والانقطاعِ إليهِ جَلَّ جلالُه.

---

(١) الثمام: جمع ثمامة وثُمَّة، وهي شجرة ضعيفة، فإذا كانوا ـ مع سهولة هذا الأمر الذي يشابه في ضعفه هذه الشجرة ـ فإنهم لا يستطيعونه، فكيف بما هو أشد منه، وهو أمر النبوة؟!

فاعْتَبِرْ «نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ» تلْقَـهُ حقًّـا وَبِـالْحَـقِّ نـَزَلَ

(وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) أيْ: النُّبُوَّةُ وَما يَتْبَعُها مِن سَعادةِ الدَّارَيْنِ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعونَه مِن حُطامِ الدُّنْيا الدَّنِيَّةِ، فالعظيمُ مَن رُزِقَ تلكَ الرَّحْمةَ دونَ ذَلِكَ الحُطامِ الدَّنِيءِ الفاني.

وَأنْتَ تَعْلَمُ أنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ اليومَ على ما كانَ عليه أهلُ الجاهِلِيَّةِ في هذهِ الخَصْلَةِ، فَتَراهم لا يَعْتَبِرونَ العِلْمَ إذا كانَ صاحِبُه فقيرَ الحالِ، ويَنْظُرونَ إلى الغَنِيِّ، وَيَعْتَبرونَ أقوالَه.

ولِلَّهِ درُّ من قالَ:

ربَّ حِلْمٍ أضاعَه عَدَمُ المَا ل وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعيمُ

***

التسعون

ازْدِراءُ الفُقَراءِ.

فَأنْزَلَ سُبْحانَه قَولَه: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

أقولُ: هذِهِ الآيةُ في أوائلِ سورةِ «الأنعام»، وبَيانُ مَعْناها يَتَعلَّقُ بِما قَبْلَها، وهو قولُه تَعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥١-٥٢].

فَلَمَّا أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بِإنْذارِ المذكورينَ لَعَلَّهم يِنْتَظِمونَ في سِلْكِ المُتَّقينَ، نُهِيَ عَن كونِ ذَلِكَ بِحَيثُ يُؤَدِّي إلى طردِهِم.

ويُفهَم مِن بعضِ الرِّواياتِ أنَّ الآيتَينِ نَزَلَتا مَعًا، ولا يُفهَمُ ذَلِكَ مِن البعضِ الآخَرِ.

فقد أخرجَ الإمامُ أحمدُ والطَّبَراني وغَيرُهما عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: «مرَّ المَلأ مِن قُرَيش على النَّبيِّ ﷺ وعنده صُهَيبٌ وعَمَّارٌ وبِلالٌ وخَبَّابٌ ونحوُهُم مِن ضُعَفاءِ المُسْلِمينَ، فقالوا: يا محمَّدُ، رَضِيتَ هؤلاءِ مِن قومِك! ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣] أنَحن نكونُ تَبَعًا لِهَؤلاءِ؟! اطْرُدْهُم عنكَ، فَلَعَلَّكَ إنْ طَرَدْتَهم أنْ نَتَّبِعَكَ. فأنْزَلَ اللهُ تَعالى فيهِمُ القرآن: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ إلى قولِهِ سبحانه: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾».

وَأخْرَجَ ابنُ جَرير وأبو الشَّيخِ والبَيْهَقِيُّ في «الدَّلائِلِ» وغيرُهُم عن خَبَّابٍ قال: «جاءَ الأقْرَعُ بنُ حابِسٍ التَّميميُّ وعُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ الفَزاريُّ، فَوَجَدا النَّبيَّ ﷺ قاعِدًا مَعَ بِلالٍ وصُهَيبٍ وعَمَّارٍ وخَبَّابٍ في أُناسٍ ضُعَفاءَ مِن المؤمنينَ، فَلَمَّا رَأوْهُم حَوْلَه حَقَروهُم، فأتَوهُ، فَخَلَوا بِهِ، فقالوا: نُحِبُّ أنْ تَجعلَ لَنا مِنكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لنا العربُ بِهِ فَضْلَنا، فإنَّ وُفودَ العَرَبِ تأتيكَ، فَنَسْتَحْيي أنْ تَرانا قُعودًا مَعَ هؤلاءِ

الأعبُدِ، فإذا نحنُ جئناكَ، فأقِمْهُم عنَّا، فإذا نحنُ فرَغْنا، فاقعُدْ معهم إنْ شِئتَ، قال: نَعَم، قالوا: فاكتُبْ لنا عليكَ بذلِكَ كِتاباً، فَدَعا بالصَّحيفةِ، وَدَعا عَلياً لِيَكْتُبَ ـ ونحنُ قُعودٌ في ناحِيةٍ ـ إذْ نزَلَ جبْريلُ بهذِه الآيةِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾.. إلخ، ثُمَّ دَعانا، فأتيْناهُ وهو يقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فكُنّا نَقعُدُ مَعَهُ، فإذا أرادَ أنْ يقومَ قامَ وتَرَكَنا، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فكان رسولُ اللهِ ﷺ يقعدُ معنا، فإذا بلغَ السَّاعةَ التي يقومُ فيها قمنا وتَرَكْناه حتَّى يقومَ».

وأخرجَ ابنُ المُنذرِ وغيرهُ عن عكرمةَ قالَ: «مَشى عُتبةُ وشَيْبةُ ابنا ربيعةَ وقُرظةُ ابنُ عبدِ عَمرِو بنِ نَوفَلَ، والحارثُ بنُ عامرِ بن نوفَلَ، ومُطعِمُ ابنُ عَديٍّ في أشرافِ الكُفّارِ مِن عَبدِ مَنافٍ إلى أبي طالبٍ، فقالوا: لو أنَّ ابنَ أخيكَ طَرَدَ عنَّا هؤلاءِ الأعْبُدَ والحُلفاءَ، كان أعظمَ له في صُدورِنا، وأطوعَ له عِندَنا، وأدنى لاتِّباعِنا إيَّاه وتَصْديقِه، فَذَكَرَ ذلِكَ أبو طالبٍ للنَّبيِّ ﷺ، فَقالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: لَوْ فعلتَ يا رسولَ اللهِ حَتَّى نَنظُرَ ما يُريدونَ بِقولِهم، وما يَصيرونَ إليه مِن أمرِهم، فأنزلَ اللهُ سُبْحانَه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى قوله سُبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾. وكانوا بِلالاً وعَمّارَ بنَ ياسرٍ وسالِمًا مولى حُذَيفَةَ وصَبيحًا مولى أسيد، والحُلفاءُ: ابنُ مسعودٍ والمِقدادُ بنُ عمرو وواقدُ بنُ عبدِاللهِ الحَنظَليُّ وعمرُو ابنُ عبدِ عمرٍو ومَرْثَدُ بنُ أبي مَرْثَدٍ وأشباهُهُم، وَنَزَلَ في أَئِمَّةِ الكُفرِ مِن قُريشٍ والمَوالي والحلفاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فَلَمَّا نَزلَت أقبلَ عُمَرُ، فاعْتَذَرَ من مَقالتِه، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقولُه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾: جملةٌ مُعترضَةٌ بينَ النَّهي وجوابِهِ، تقريراً له، ودَفعاً لما عَسى أنْ يُتَوهَّمَ كونُهُ مُسوغاً لطردِ المُتَّقينَ من أقاويلِ الطَّاعنينَ في دينِهم، كدأبِ قومِ نوحٍ حيثُ قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، والمعنى: ما عليك شيءٌ ما مِن حساب إيمانِهم وأعمالِهم

الباطنةِ، كما يقولُه المشركونَ، حَتَّى تَتَصَدَّى لَهُ، وَتَبْنِي على ذلكَ ما تراه من الأحكام، وإنَّما وظيفتُكَ ـ حَسْبَما هو شأنُ مَنصِبِ الرِّسالةِ ـ النَّظَرُ إلى ظواهِرِ الأمورِ، وإجراءُ الأحكامِ على موجَبِها، وتفويضُ البواطنِ وحسابِها إلى اللطيفِ الخبيرِ، وظواهرُ هَؤلاءِ دعاءُ ربِّهم بالغداةِ والعشيِّ.

ورُوِيَ عن ابنِ زيدٍ أنَّ المعنى ما عليكَ مِن شيْءٍ مِن حسابِ رِزقِهِم[١]، أيْ: مِن فقرِهِم، والمرادُ لا يَضُرُّكَ فقرُهُم شَيْئاً لِيَصِحَّ لك الإقدامُ على ما أرادهُ المشركون منكَ فيهم.

وقولُهُ: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ عطفٌ على ما قَبْلَهُ، وَجِيءَ بِهِ ـ مَعَ أنَّ الجوابَ قد تَمَّ بِذَلِكَ ـ مبالغةً في بيانِ كونِ انتفاءِ حسابِهم عليه يَنْظِمُهُ في سِلْكِ ما لا شُبهةَ فيه أصْلاً، وهو كونُ انتفاءِ حسابِهِ ﷺ عَلَيْهِم، فهو على طريقةِ قوله سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، في رأي.

وقال الزَّمَخْشَريُّ: «إنَّ الجملَتَينِ في مَعنى جملةٍ واحدةٍ يُؤَدِّي مُؤَدَّى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٥]، كَأَنَّهُ قيلَ: لا تُؤاخَذُ أنتَ ولا هُم بِحساب صاحِبِهِ، وحينئذٍ لا بدَّ مِنَ الجُملَتَينِ[٢]، وَتُعُقِّبَ بأنَّهُ غيرُ حَقيقٍ بجلالةِ التَّنزيلِ»[٣].

وقولُهُ: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جَوابٌ للنَّهْيِ.

***

(١) روح المعاني (٧/ ١٦٠).
(٢) الكشاف للزمخشري المعتزلي (٢/ ١٧).
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٣٧-١٣٨).

الحادية والتسعون

عَدمُ الإيمانِ بملائكةِ اللهِ وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ.

والكلامُ على ذلكَ مُفصَّلٌ في التَّفسيرِ وكُتُبِ الحَديثِ والعقائِدِ.

والآياتُ في ذلكَ كثيرةٌ، مِنها قولُهُ تَعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وَمِنَ الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ في إنكارِ البَعْثِ والنُّشورِ:

وماذا بِالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... مِنَ الشِّيزى تَزَيَّنُ بالسَّنامِ
ومَاذا بِالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرَامِ
تُحَيِّينَا السَّلامَةَ أمُّ بَكْرٍ ... فهَلْ لِي بَعْدَ قَومي مِنْ سَلامِ
يُحَدِّثُنا الرَّسُولُ بأنْ سَنَحْيا ... وكَيْفَ حَياةُ أصداءٍ وَهامِ[1]

وقال آخرُ:

حياةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ نَشْرُ ... حديثُ خُرافَةٍ يا أمَّ عَمْرِو

وَمِنَ الآياتِ الدَّالةِ عَلى ذَلِكَ قولُهُ تَعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٧].

وَقَدْ تَكَلَّمْنا عَلى مُعْتَقَداتِ الجاهِلِيَّةِ وَأَدْيانِهِم في غَيْرِ هذا الموضعِ[2].

***

(١) عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه تزوّج امرأةً من كَلْبٍ يقالُ لها: أمُّ بكرٍ، فلما هاجر أبو بكرٍ طلَّقها فتزوَّجها ابن عمِّها هذا الشاعر الذي قال هذه القصيدةَ رثى كفَّار قريشٍ: «وماذا بالقليب...» الأبيات رواه البخاري في (مناقب الأنصار/ هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: ٣٩٢١).

(٢) وذلك في كتابه «بلوغ الأرب في أحوال العرب».

الثانية والتسعون

الإيمانُ بالجِبْتِ وَالطَّاغوتِ، وتَفْضيلُ دينِ المُشرِكينَ على دينِ المُسْلِمينَ.

قَالَ تَعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١].

وقد تَقَدَّمَ الكَلامُ على ذلكَ مُفَصَّلاً[1].

والمقصودُ ـ هُنا ـ أنَّ جَهَلَةَ الكِتابِيِّينَ كانوا يقولونَ لِلمُشرِكينَ: أنتُم أهْدى من المُسلِمينَ، وَما عِندَكُم خَيرٌ مِمَّا عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ وَأَصْحابُهُ.

وَتَرى المُتَصَوِّفَةَ والغُلاةَ اليومَ على هذا المَنْهَجِ، يقولونَ: إنَّ دُعاةَ أهلِ القُبورِ والغُلاةَ خَيرٌ مِمَّن يَمْنَعُ عن ذَلِكَ مِن أهلِ التَّوحيدِ وحُفَّاظِ السُّنَّةِ.

***

---

(١) (ص ١٠٠ ـ ١٠١).

الثالثة والتسعون

كِتْمانُ الحَقِّ مَعَ العِلْمِ بِهِ.

كما حَكى اللهُ ذَلِكَ عَن أحبارِ بَني إسرائيلَ مِنَ اليَهودِ والنصارى، فَقَدْ كَتَموا ما وَرَدَ فِي كُتُبِهِمْ مِنَ البشائرِ المُحَمَّدِيَّةِ، وَهُم يَعلَمونَ بِوُرودِها وَذِكْرِها في كُتُبِهِمْ.

والكَلامُ على هذا البابِ مُفَصَّلٌ في «الجَوابِ الصَّحيحِ»[١] لِشَيخِ الإسلامِ، فَعَلَيْكَ بِهِ، فَإنَّهُ كِتابٌ لَمْ يُؤَلَّفْ مِثْلُهُ.

***

(١) (٣/ ٢٦٣-٣٢٢).

الرابعة والتسعون

القَولُ على اللهِ بِلا عِلْمٍ.

وهو أساسُ كُلِّ فَسادٍ وَأَصْلُ الضَّلالِ.

وأكثرُ النَّاس حَظًّا مِن هذِهِ الخَصلةِ الجاهِليَّةِ مُبْتَدِعَةُ المُتَكَلِّمينَ، فَقَدْ تَكَلَّموا في الصِّفاتِ الإِلٰهِيَّةِ بِمَا لَمْ يُنْزِلِ اللهُ بِهِ مِن سُلْطانٍ، وَأَوَّلوا نُصوصَ الشَّرِيعَةِ بِمَا تَهْواه أَنْفُسُهُم، كَما فَعَلَه الرَّازِيُّ في كتابِهِ: «أساسُ التَّقْديسِ».

وَجَزى اللهُ شيخَ الإِسلامِ خيراً، فَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ، وَنَقَضَ أساسَهُ، وَسَجَّلَ ضَلالَهُ وَجَهْلَهُ، وَضَيَّقَ أَنْفاسَه[1]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

***

الخامسة والتسعون

التَّناقُضُ الواضِحُ.

قَالَ تَعَالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

وَهكَذا أَهْلُ البِدَعِ مِنَ الغُلاةِ وَغَيْرِهِم يَدَّعونَ الإِسلامَ، ويَعْمَلونَ أعْمالاً تُناقِضُ ما هُم عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ.

***

(١) وذلك في كتابه: «بيان تلبيس الجهمية» أو «نقض تأسيس الجهمية».

السادسة والتسعون، والسابعة والتسعون والثامنة والتسعون، والتاسعة والتسعون، والمئة

العِيافةُ، والطَّرْقُ، والطِّيَرَةُ، والكِهانَةُ، والتَّحاكُمُ إلى الطَّاغوتِ، ونحوُ ذلِكَ:

وَقَدْ تَكَلَّمْنا على هذِهِ الأمورِ في كتابِنا «بُلوغُ الأربِ في أحوالِ العَرَبِ»[١] بِمَا لا مَزيدَ عَلَيْهِ، وَذَكَرْنَا هناكَ أوابِدَهُم وَخُرافاتِهِم وسائِرَ ضلالاتِهِم، وَكُلُّ ذلِكَ مِن أعمالِ جَهَلَةِ المُسلِمينَ اليومَ، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤][٢].

---

(١) (٣/ ٢٦٩-٣٢٦) وهذا الكتاب من أنفع الكتب في هذا الباب.

(٢) العيافة: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها، وأصواتها، وممرها، وهو من عادات العرب، وكثيرٌ في أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفاً، إذا زجر وحدس وظن.

والطرق: الخط يخط بالأرض، ويسمونه خط الرمل وعلمه، ويزعم من يفعله أنهم يطلعون على المغيبات، ومثله قراءة الفنجان والكف، وغير ذلك.

والطيرة: التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ وغيرها، فنهى الشرع عن التطير وذمَّ المتطيرين، وكان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة، وفي الحديث الصحيح: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك». رواه أحمد، وهو في «صحيح الجامع» برقم ٦٢٦٤.

والكاهن: كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فمن زعم خلاف ذلك فهو كافر.

وأما التحاكم إلى الطاغوت: فكل من حاكم إلى غير الكتاب والسنة فقد حاكم إلى الطاغوت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وهذا آخر ما علقته على هذا الكتاب القيم «مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية» أسأل الله العظيم أن يتقبله مني وأن يجزي كل من قرأه وعمل به، وحرص على نشره وتوزيعه خير الجزاء.

هذا وقد تجمع لدي أكثر من ستين مسألة، من مسائل الجاهلية، غير ما ذكره الشيخان رحمهما الله، أسأل الله العظيم أن ييسر طباعتها قريباً، بفضله وجوده، وعليه التكلان، وبه الثقة، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].



وغالِبُ مسائلِ الأصلِ رؤوسِ مسائلَ في كتاب «اقتضاء الصِّراطِ المُستقيمِ» ومَنَ أرادَ التَّفصيلَ فَلْيَرْجِعْ إلَيْهِ.

وَهٰذَا آخِرُ ما أَرَدْنَا شَرْحَهُ مِنَ المَسائِلِ الَّتي أبطَلَها الإسلامُ، والحمدُ لِلَّهِ وَلِيِّ الإنعامِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى خَيْرِ الأنامِ، ومِصباحِ الظَّلامِ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسانٍ إلى قِيامِ السَّاعةِ وساعةِ القِيامِ.

وكانَ ذَلِكَ في اليومِ الخامِسِ مِنْ ذي الحِجَّةِ الحرامِ، وهو يومُ الخميسِ بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشرينَ وثَلاثِمائَةٍ وألفٍ مِن هِجْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ أفضلُ الصَّلاةِ وَأكْمَلُ السَّلامِ.

٥ ذي الحجة سنة ١٣٢٥هـ.

وقَدْ فَرَغْتُ مِن كِتابتِهِ صباحَ الجُمُعةِ في اليومِ السابعِ والعِشرينَ مِن شهرِ شَعْبان سنةَ أربعٍ وأربعينَ وثلاثمائةٍ وألفٍ من هجرةِ خيرِ الأنَامِ ـ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ في بغدادَ دارِ السلامِ، في جامع الحيدر خانةَ، وأنا الفقيرُ إليه ـ عَزَّ شأنُه ـ عبدالكريم بن السيد عباس الشيخلي ـ غَفَرَ اللهُ لهُما ولجميعِ المسلمينَ.

٢٧ شعبان سنة ١٣٤٤.

***

فهرس الموضوعات

الموضـــوع | الصفحة